الباب الثالث

آراء ابن باديس العملية

الفصل الأول : منهج الإصلاح الدينى

الفصل الثانى : منهج الإصلاح الأخلاقى

الفصل الثالث : منهج الإصلاح الاجتماعى

الفصل الأول

منهج الإصلاح الدينى

تمهيد :

لم يضع ابن باديس قواعد منهجه الإصلاحى فى صورة نظرية بحتة أو نسق فلسفى عـلى نحو واقعى أو مثالى ، بل وضع تصوراً ممكناً لإصلاح الإنسان والمجتمع وكيفية الجمع بين القول والعمل فى إطار الأسس العامة للتفكير العلمى والعملى التى يجب أن تسلك لتحقيق الوعى المطلوب .

وفى هذا المجال أوضح أن الجمع بين النظرية والتطبيق فى الدين لا يعنى تطبيق منهج العلم فى الدين أو العكس ، بل يعنى ضرورة الاعتماد على التربية القرآنية الحقه فى جانبها المعرفى والخلقى ، والالتزام بالصدق فى القول وفى الفعل، وتطبيق القاعدة العامة للإصلاح التى أعلنها وهى : أننا نربى تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إليه فى كل يوم .

ومن هنا كان المنهج القرآنى فى شموليته وعقلانيته وأسلوبه فى الرد والحجاج والاستدلال هو الباعث على الأمل فى الإصلاح والتغيير ، والأمل فى الجنة وحسن ثواب الآخرة ، بالإضافة إلى أنه منهج يتلاءم مع الفطرة الإنسانية . ومن ثم كان الإصلاح الدينى هو نقطة الانطلاق لكل تغيير وإصلاح يريده ابن باديس .

إن الاهتمام بالمنهج الباديسى فى الإصلاح الدينى من حيث الأسس والقواعد ، هو فى الواقع المدخل الطبيعى لدراسة الفكر الإسلامى والعربى الأصيل فى بداية هذا القرن ، فمن خلاله نتعرف على دور ابن باديس ومواقفه من مختلف التيارات الفكرية ، كما نتعرف على حقيقة التعالم وآراء أهل السنة والسلف وبعض فرق الصوفية المعاصرة ، وكيف يمكن الاستفادة من إيجابياتها وتصحيح

مسارها عند انحرافها ، وكيف يمكن مواجهتها.. ومن خلاله أيضا نتعرف على الإصلاح الدينى كمنهج يقوم على أصول وقواعد مستمدة من القرآن والسنة ومن أصول الفكر الإسلامى وملامحه الرئيسية ، ولابد أن يكون له هدفه المحدد الذى يسعى إلى بلوغه وهو إصلاح الإنسان .

أولاً : قواعد المنهج :

حدد ابن باديس الخطوات العملية والقواعد اللازمة لتحقيق منهجه فى الإصلاح الدينى ، وهذه القواعد هى :

(١) اللغة والتعليم :

الإصلاح الدينى يتوقف أساساً على الاهتمام باللغة والتعليم ، لأن اللغة عنده هى الوسيلة الأولى للإبلاغ والتفاهم وإنتشار الأفكار الإصلاحية ، وهى الأساس فى تطوير المناهج الدراسية فى المعاهد الدينية ، فإصلاح التعليم إذن متوقف على إصلاح اللغة وبالتالى إنتشار العلم والقضاء على مظاهر التخلف والأمية .

ولتحقيق ذلك أخذ ابن باديس عدة خطوات عملية منها :

أ - لم يوافق على أسلوب التعليم المتبع سواء منه المحلى المتخلف أو الأجنبى الفرنسى الذى يقتصر على تعليم اللغات الأجنبية ويهمل اللغة الوطنية القومية .

ب- ساهم فى بناء وإنتشار المدارس العربية المتخصصة لغة وعلوما لإيمانه بأن العلم والتعليم أساس تحقيق الوعى الدينى .

جـ- بدأ بنفسه تدريس اللغة العربية وعلومها فى المساجد ، وفى دروس التذكير اليومية ، إلى جانب تدريس أصول الدين وما تشتمل عليه من عقائد وأخلاقيات ، مستعينا بكتب الأقدمين فى هذا الفن مثل كتاب « الشفاء »

للقاضى عياض ، بالإضافة إلى دروس الفقه والحديث والنحو والصرف والتفسير ومبادئ المنطق والحساب .

د - الدعوة إلى حفظ القرآن . لأن فى ذلك تمسك بلغته وتعاليمه ، فالقرآن بحق كما يقول : هو كتاب عقيدة وتربية ويخاطب الضمير ويحث على السليم من التفكير والنظر الصحيح الموصل للإيمان .

هـ- ساهم فى تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الذين وافقوه ورافقوه فى الدعوة الى العلم والتعليم وآمنوا معه بأنه لا إصلاح إلا عن طريق إصلاح اللغة والتعليم .(١)

و - تمكن من وضع الإصلاح الدينى فى إطار المنهج العام للإصلاح بعد استقراء جميع مشاكل المجتمع الدينية والعلمية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية، ثم القيام بتحديدها وتحليلها على أساس من العلم والمعرفة والدين .

ز - دعا إلى الإهتمام بالعلم فى جميع فروعه وشئونه ، والإهتمام بالأصول مع ضرورة الإستفادة من علوم الغرب .. ولهذا كان موقفه الرافض لأسلوب بعض العلماء الذين قصروا العلم على تعليم الدين وفروعه دون الأصول وشرحها وعدم إعتمادهم على الاستلال والتعليل والنظر. ولذا توجه ابن باديس إلى طبقات

---

(١) تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى الخامس من مايو عام ١٩٣١. وأنتخب ابن باديس رئيساً لها ، وكان هدفها تحقيق وحدة الفكر للشعب ، وشعارها الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا والجزائر وطننا ، وأعلنوا أن اللغة والتعليم أساس كل إصلاح ، وأنه لابد من إيجاد من يحفظ على الأمة علوم الإسلام كالعلماء ورجال الدين والنشىء من المتعلمين ، فلا بقاء للإسلام إلا ببقاء علومه ولا بقاء لعلومه إلا بوجود من يتعلمها ويعلمها.

الشعب وخاصة الأسر الغنية ودعاهم إلى الأهتمام بعلوم الحياه إلى جانب الإهتمام بالنشاط الإقتصادى على أساس من العلم .(١)

ح- الدراسة العلمية لإحتياجات الإنسان الروحية ونوازعه المتحكمة فى سلوكه ، لإعتقاده بأن الإصلاح الدينى هو المقدمة الضرورية لصلاح الإنسان وبناء الثورة الجزائرية وإحداث التغيير المطلوب وتحقيق أمل الإنسان فى الحياة ، وأن إصلاح الإنسان وبنائه لا يكون إلا بتثبيت اليقين وعقائد الإيمان الصحيح الذى يخلصه من حالة الشك والإرتياب وكل مظاهر الضعف فى حياته وهى تلك الحالة التى يصفها إبن باديس بقوله :

« تمر على العبد أ ل يكون فيها متحير مرتبكا كمن يكون فى ظلام، منها حالة الكفر والإنكار ، وليس لمنكر الحق المتمسا بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن إليه ولا يقين بالمصير الذى ينتهى إليه ، ومنها حالة الشك ومنها حالة إعتراض الشبهات ، ومنها حالة ثورات الشهوات ، والطريق للخروج من هذه الحيرة إتباع القرآن والسنة ، فهو طريق النجاة الذى يخرجهم من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات وما فيها من حيرة وعماية ، إلى حالة الإطمئنان للقلب بالإيمان واليقين فتضمحل أمامها الشبهات وتكسر سلطان الشهوات . فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التى يكون فيها من أعرض عنها أو خالفها يخرج منها إلى الحالة النورانية الروحية وهى حالة من آمن لقوله تعالى : " الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور " »(٢)

---

(١) راجع مقال ابن باديس فى مجلة الشهاب عدد يوليو ١٩٣١ بعنوان : إلى متى ونحن راضون بالموجود وفى غنى عن علوم الحياة ، ودعا فيه إلى ضرورة الإستفادة من كل العلوم وكذلك علوم الغرب فى إطار من الحرية والعدالة والأخوة والسلام .

(٢) البقرة : ٢٥٧

* راجع التفسير الباديسى ص ٥٥٣ - ٥٥٤

ط- الإهتمام بالعلماء فهم بمثابة القلب من الأمة ، فإذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، ولأن صلاح المسلمين إنما هو بفهمهم للإسلام وعلمهم به ، وأننا إذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم ، فالتعليم هو الأساس ، فهو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يكون عليه فى مستقبل حياته ، وما يستقبل من عمله لنفسه ولغيره ، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم .

(٢) الجمع بين القول والعمل :

وهى قاعدة هامة للإصلاح حين يرتبط القول بالفعل ، وهى تؤكد أن الدين لا ينفصل عن الدنيا وعن الحياة بمشاكلها ومتطلباتها ، كما تؤكد على تلازم الفكر والسلوك فى إطار العلم وقوانينه

ويشير ابن باديس إلى أهمية القاعدة فى تحقيق الإصلاح الدينى لأن ارتباط القول بالعمل يؤكد على أن طلب الآخرة وحدها مذموم وأنه لابد من العمل بوصفه السبيل إلى تصحيح وتجديد المفهوم الدينى والقضاء على عوامل التخلف والجمود ، ومن ثم كان يردد قوله : وأصدق الأمل مابنى على عمل(١) وفيها تأكيد أيضا على أن الأصلاح الدينى ليس مجرد محاولة باطنية لتقويم العقيدة بهدف طلب الآخرة وحدها دون أن تكون له علاقة بالدنيا ، لأن عليه مسئولية ربط العمل كقيمة عليا بمبادىء الدين الصحيح ، الدين بوصفه عملية التذكر والتفكر والعلم والتعليم وفقا لأوامر الله الداعية الى العلم والعمل والتفكر كما فى قوله تعالى :

" قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا "(٢)

---

(١) ابن باديس : حياته وأثاره . ص ٣٦٠ جـ٤

(٢) سبأ : ٤٦

" وكذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون "(١)

والعمل عند ابن باديس له معناه الإنساني والإجتماعي ، وهو أول خطوات الإصلاح الفعلي وأول وسائل العلاج والتغيير ، وفيه أيضا معنى التضحية من أجل الجماعة والسعي لنشر الوعي والثقافة والإبتعاد عن الخرافات والجهل فذلك من صميم العمل .(٢)

ومن هنا كان تصميم ابن باديس على تطبيق مبدأ الإمام مالك في الموطأ : أنه لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها . أي بما علم وفعل والتزم به أول هذه الأمة قولاً وعملاً واعتقاداً ، وليتحول مبدأ الجمع بين القول والعمل الى برنامج عملي لحياتنا المعاصرة يسهم بطريقة عملية في إصلاح الفكر وإصلاح الإنسان وهداية الأمم في حياتها الإجتماعية والسياسية والثقافية وحمايتها من الإتجاهات المادية والمذاهب المنحرفة التي أفسدت الأخلاق والنفوس والضمائر .*(٣)

إن هذا العمل الذي يتسم بالفاعلية والصلاح عند ابن باديس له أدواته ومتطلباته المادية والمعنوية وفي مقدمتها رجال الإصلاح والفكر أنفسهم ، ثم الإقتداء والتأسي بالنهج النبوي في أقواله وأفعاله وطريقة دعوته ، وتحمل مسئولية التبليغ كما في قوله تعالى : قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن

---

(١) البقرة : ٢١٩ ، ٢٦٦

(٢) ابن باديس : العقائد الإسلامية : تقديم الشيخ البشير الإبراهيمي ص ٥ ، ١١.

* لقد توافقت هذه الدعوة مع دعوة رجال الإصلاح أمثال الأفغاني ومحمد عبده وإهتمامهم بالجمع بين القول والعمل وإجماعهم على أنه لا خير في علم ليس بعده عمل وتقديمهم العلم على العمل .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : جمال الدين الأفغاني ص ١١٣ ، د. عثمان أمين ، محمد عبده : ص ٧٧، ٧٨

اتبعني....(١) فجعل من إتبعه داعيا معه إلى الله على بصيرة ليتحقق الإصلاح والتصحيح في الاعتقاد والسلوك وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم النصوص ، فإذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والإضطراب ، وتتهذب الأخلاق بالملكات السليمة المتفكرة في عالم النفس وعالم الطبيعة معاً ، فقال تعالى : " أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى "(٢) .

(٣) إستخدام وسائل الإعلام :

وفي مقدمتها الصحافة وإقامة الندوات والمحاضرات ، ومن أجل تطبيق هذه القاعدة تحولت الصحافة الجزائرية عامة والصحف التي أنشأها ابن باديس خاصة إلى أداة فعّالة لنشر مبادىء الدين الصحيحة والتعريف بأهمية الاصلاح ووسائل التنفيذ وكانت هذه الصحف وسائل للتعريف بآراء أصحاب الطرق المنحرفة وما يدعونه من خرافات وأباطيل وبعد عن المنطق والعقل ، وكشف الصالح والطالح منها وقد وصف البعض هذا الموقف بقوله : لقد حملت مجلة المنتقد بعد الشهاب لواء النهضة وعرضت لمبادىء الوحدة والإتحاد بين المسلمين ، تلك الوحدة التي تسهم في صفاء العقائد وإذكاء النفوس واستقامة الأعمال ، حين ينبعث العرب عن قوة وبصيرة في الأخذ بالأسباب أسباب الحياة الراقية والمدنية الطاهرة مشاركين لأمم الدنيا في خدمة الإنسانية وترقية وتوسيع العمران ، سالمين مما تشكو منه أمم الحضارة التي غلبت عليها المادة والأنانية ، وتفشت فيها أمراض ليست من التمدن الحقيقي في كثير ولا قليل .(٣)

---

(١) يوسف : ١٠٨

(٢) الروم : ٨

(٣) محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٨٨ - ٩٦.

(٤) الإهتمام بالإنسان الفاعل المختار :

بوصفه الأداة الفعّالة لكل تغيير وإصلاح ، من أجل ذلك أوجب ابن باديس الإعتراف بحرية الإنسان واختياره فى حدود الشرع والأسباب المرتبطة بالمسببات والعناية بها لأن حرية الانسان وإختياره لأفعاله وصنعه لها أساس تقدمه ، وأساس محاسبة الله له ، وأن علم الله بالمطيع والعاصى لا يعنى أن هذا العلم هو الذى أوجد الطاعة والمعصية ، إنما الذى أوجدها هو إختيار الفاعل لها وأن الله سبحانه قد أحاط بكل شىء علماً فعلم من سيطيعه ومن سيعصى ، ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذى لا دخل لهم فيه بل جعل جزاؤهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من إختيارهم ليكون جزاؤهم عى ما عملوا وما قدمت أيديهم ، وعليه فلا يصح أن يحتج بالقدر فى الذنوب لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والإختيار والدلالة الفطرية والدلالة الشرعية ، لقوله تعالى : "وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون " (١)

(٥) الدعوة بالتى هى أحسن :

بوصفها الوسيلة العلمية والعملية لتحقيق الإصلاح الدينى والإجتماعى المنشود . فإذا كان الهدف من اللغة والتعليم ، والإهتمام بالانسان عموماً هو القضاء على عوامل التخلف والجهل ونشر مبادىء الدين الصحيحة ، فإن الدعوة بالتى هى أحسن تمثل أفضل الوسائل وأسرعها لتحقيق ذلك الهدف . والأصل فى هذه الدعوة كما يرى ابن باديس :

- أنها أدب قرآنى يستوجب الداعى بها الاقتداء بالنبى ﷺ فى التجاوز عما فى القوم عن كثير من العيوب . ولها عدة صفات وخصائص عامة :

---

(١) الزخرف : ٢٠

أهمها :

أ - أنها دعوة عامة موجهة لأهل الكتاب ولجميع الأمم سواء مسلمين أو غير مسلمين ، لقوله تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم "(١) ويرى ابن باديس أن هذه الآية تصور أدب الإسلام فى دعوة غير أهله لتتعلم كيف ينبغى أن نختار عند الدعوة لأحد أحسن ما يدعى به وكيف تقتضى ما يناسب ما نريد دعوته إليه ، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك ويفتح لك سمعه وقلبه ودعاؤه بما يكره يكون حائلا يبعد بينك وبينه.(٢)

ب- أنها تشترط على الداعى إلى الله والمناظر فى العلم أن يقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه ، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب لأن فى ذكرها خروج عن القصد وبعد عن الأدب وتعدٍ على الخصم وإبعاد له وتنفير عن الاستماع والقبول وهو المقصود من الدعوة والمناظرة .

جـ- أنها دعوة إلى إبطال كل مظاهر الجهل والجمود وتعتمد على العلم والتفكير وهى لا تكون إلا بالعقل والمنطق إسترشاداً بما كان يقوله ويفعله النبى ﷺ فى سيرته فكان معرفا للخلق لما كانوا يجهلون من آيات الله فى الكون وفى أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال(٣).

د - أنها دعوة مبنية على الحجة والبرهان فى بيان أركان الطاعة والتوحيد

---

(١) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

(٢) ابن باديس : حياته وأثاره جـ ١ ص ١٨٩ - ١٩١

(٣) ابن باديس : حياته وأثاره جـ ١ ص ١٦٤ ، ١٧٣

ولأن هذه الدعوة قائمة على البيّنة لابد من التمييز بين الخطأ والصواب وبين الصادق والكاذب ، ولابد من التأسى بالأسلوب النبوى الذى كان يستشهد بالعقل وينتقد بالعلم ويستنصر بالوجدان ويحتج بأيام الله فى الأمم الخالية وما استفاض من أخبارها وبقى من آثارها .

هـ- أنها دعوة إلى تنزيه الله عن الشبيه والشريك وعن كل ما لا يليق بجلاله ، وذلك يتطلب أولا الإعتراف بخالق الكون الواحد ، ثم تنزيهه عن المشابهة والمماثلة ، وأن لا يسميه إلا بما سمى به نفسه ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه ، ويعرفهم بآثار قدرته ومواقع رحمته ومظاهر حكمته وآيات ربوبيته وألوهيته ووحدانيته فى جلاله وسلطانه .. والمسلمون المتبعون لنبيهم ﷺ فى الدعوة الى الله على بصيرة متبعون له فى هذا التنزيه عقداً وقولا وعملاً وإعلانا ودعوة.(١)

(٦) الدعوة بالحكمة والتسامح والجدال الحسن :

وهذه القاعدة من قواعد المنهج الإصلاحى يستنبطها ابن باديس من قوله تعالى : أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .(٢)

ويقول : إن هذه الآية فيها بيان لطريقة الدعوة وأركانها وما تدعو إليه وكيفية الدعوة بالموعظة والحكمة وماهو الجدل المطلوب ، وفيها أيضا بيان للسبيل الذى يدعو إليه كل داع للإصلاح وهو ما شرعه الله لعباده بما أنزل من كتابه ، وما كان من بيان رسوله لما فيه استنارة عقولهم وذكاة نفوسهم وإستقامة أعمالهم ، وسماه سبيلاً ليلزموه فى جميع مراحل سيرهم فى هذه الحياة ليفضى بهم إلى العناية

---

(١) راجع التفسير الباديس صفحات ٥٣٢ - ٥٥٥ ، جـ ١ ص ١٧٤ - ١٩١

(٢) النمل : ١٣٥

المقصودة وهى السعادة الأبدية فى الحياة الأخرى ، وأضافه إلى نفسه ليعلموا أنه وضعه وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه.

- وأن أركان الدعوة المستمدة من هذه الآية أربعة وهى : الداعى وهو النبى ﷺ ، والمدعو وهم جميع الناس ، والمدعو إليه وهو سبيل الرب جل جلاله ، والدعوة إلى سبيله الموصل إليه بالدعوة وهو الله سبحانه.

- وأن هذه الدعوة القائمة على الحكمة لابد أن يقدمها الداعى الحكيم ، والحكمة هنا بمعناها اللغوى الوارد فى القرآن الكريم والحديث الشريف ولغة العرب ، وهى بمعنى الإصابة والفهم فى القول والعمل :

- وأن هذه الحكمة تعنى العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن المبنى على ذلك العلم ، وهو الشيء الكامن الفعّال الذى يصلح به الدين والدنيا ويظهر فى سلوك الفرد وفى رأيه وإتزان فكره .

- وأن هذه الحكمة تظهر فى مجالات أربعة هى : العقائد الحقة بوصفها الحقائق الراسخة فى النفس التى تظهر آثارها فى الأقوال والأعمال فهى حكمة . كما تظهر فى الأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التى أثمرتها تلك العقائد . كما تظهر فى الأخلاق الكريمة كالحلم والأناه وهى علم وعمل نفس فهى حكمة ، كما تظهر فى البيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع وهو حكمة ..(١)

(٧) التفرغ ثم التفاؤل :

إعتبرها ابن باديس من أهم القواعد اللازمة لنجاح الإصلاح الذى يتطلب البعد عن الوظائف الحكومية ، وقد اشترط ابن باديس هذه القاعدة عندما وجد الكثير من دعاة الاصلاح المتسمين بالعلم فى رأيه (متوظفون أو مرشحون

---

(١) راجع : التفسير الباديسى : فى بيان كيف تكون الدعوة الى الله والدفاع عنها : ص ٥٣٢/٥٤٤ ، وفى آثار ابن باديس جـ١ ص ١٨١ ، ١٩٢

للوظيف أو طامعون فيه) ، ورأى أن تحقق هذ الشرط يبث روح الأمل والتفاؤل ويحمى المواطنين من رغباتهم ولكى لا يجبروا على التعاون مع الاستعمار ضد أهليهم وأنفسهم .

وبالرغم من صدق هذه القاعدة الأخلاقية فى نجاح الاصلاح والاقتناع بأهميتها فإنها لم تنطبق على كثير من الدعاة والمفكرين ، ومنهم الإمام محمد عبده والذى كانت رغبته فى الوظيفة الحكومية من أجل تحقيق وتيسير السبيل أمام الإصلاح حيث يساهم منصب المسئولية فى تنفيذ مشروعاته الإصلاحية ومع هذا فإن إقتناع محمد عبده بصدق هذه القاعدة جعله يدافع عن نفسه بقوله لولا ما أرجوه من إصلاح للأزهر والمحاكم الشرعية ماقبلت الوظيفة.(١)

ويؤكد ابن باديس على أن التفرغ والتفاؤل فى مقدمة العوامل المساعدة فى سرعة تنفيذ المنهج الإصلاحى لعدة أسباب منها :

أ - إنه الدافع الغريزى الذى دفع الدعاة والمصلحين إلى بث روح الأمل فى نفوس مواطنيهم والأخذ بيدهم لتجديد شباب الأمة الإسلامية .

ب- أن التفاؤل لا يثمر إلا إذا كان مرتكزا إلى دعامة دينية وهى الإعتماد على الله وحده لا على المخلوق ، ومن ثم كان تساؤله المتفائل : من ذا الذى لم يجد نفحات الرحمات فى أكثر الأوقات فى أحرج الساعات.(٢)

جـ- إن التفرغ والتفاؤل يبعث على الأمل ويحث على التغيير نحو الأفضل بوصفه خيره إيجابية وعملية باعثه على الثقة الضمنية فى إمكانية التحسن والتغيير

---

(١) راجع أقوال الإمام محمد عبده فى مسألة الدعوة والإصلاح والإهتمام بالإنسان قولاً وفعلاً واعتقاداً فى الشيخ محمد عبده : الإسلام بين العلم والمدنية ، عرض وتحقيق د. طاهر الطناحى ص ٢٠٤ ، وما كتبه الدكتور عبد الله شحاته فى منهج الإمام محمد عبده طبعة ١٩٨٤.

(٢) د. محمود قاسم : ابن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ص ٣٧

والإصلاح ، فيبعث التفاؤل على النجاح والوصول الى الحق وصدق اليقين ، ومن هنا كان التفاؤل دليلاً على قوة الإيمان وحب الحياة وقهر اليأس .

د - إن التفاؤل قاعدة تربوية وأساسية فى عملية التعلم ، ولهذا ركز عليها المفسرون والمصلحون فى إزالة مشاعر اليأس والقنوط من القلوب والتذكير بوعد الله الحق والتبشير بالجنة والنعيم والمغفرة .

هـ- أن التفاؤل قيمة أخلاقية سامية كما يقول رجال الأخلاق لأنها إتجاه نحو المستقبل وسعى من أجل تحقيق المثل الأعلى وتجاوز الحاضر وبالتالى فإنه لا حياة للموجود الأخلاقى إلا بالأمل وفى الأمل .(١)

وفى هذا يوافقهم ابن باديس مؤكداً أن روح التفاؤل والعمل المستمر هما أساس كل شىء ، وأن الأمل والتفاؤل يبعثان على الأخوة الاسلامية والحقوق الإنسانية والإيمان بوحدة الأديان والأوطان ، ومن ثم فإن الإيمان الصادق الذى يسعى لتحقيق الإصلاح الدينى مبعثه الحب الذى بعثه التفاؤل وحب السلم والخير والعدل والمساواة للإنسان .

بالإضافة إلى ذلك فإن التفاؤل ضرورى ولازم فى كل شىء كما يقول ابن باديس ، كما أنه لازم لإرجاع الأمة الجزائرية إلى الحقيقة القرآنية ومنبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضارى .(٢)

ثانيا : الدين والتصوف (مواقف ابن باديس العملية)

لقد أدرك ابن باديس أهمية إصلاح مسار التصوف ومواجهة العديد من أصحاب الطرق الذين خرجوا بمذاهبهم عن أصول الدين ومبادئه ، كما أدرك أن

---

(١) د. زكريا ابراهيم : المشكلة الخلقية ص ٣٦٢

(٢) د. محمود قاسم : ابن باديس الزعيم الروحى ص ٣٧

القضاء على الخرافات وعوامل الجهل من أهم عوامل الإصلاح الدينى وبناء المجتمع السليم .

ومن هنا رأى البعض : أن عظمة ابن باديس وأهميته تكمن فى نجاحه فى تصحيح مسار التصوف الإسلامى فى بداية القرن العشرين عائداً بشعبه إلى الحقيقة القرآنية وطريق الحياة ، ونجاحه فى مواجهة الطرقية المنحرفة وطوائف الشرك وأصحاب الفساد الخلقى والإجتماعى ، وأن هذا النجاح مرجعه ما كان يملكه من حس صوفى صادق وعميق ، ومن علم كاف بأصول التصوف وحقيقته.(١) ومن المعروف أن ابن باديس قد نشأ صوفيا فى طور حياته الأولى ، كما نشأ وتربى فى بيئة دينية ، وأنه فى بداية حياته الفكرية كان ينتمى إلى الطريقة الخلوتية . وقد وصف ذلك عمر بن قنية حين قال : كان ابن باديس يأتى من قسنطينة إلى الجزائر العاصمة مع ركب سيدى محمد بن عبد الرحمن حيث يجتمع الأخوان لأداء طقوسهم وأذكارهم بالضريح الذى شدوا إليه الترحال.(٢)

ورأى البعض الآخر أن موقفه من أصحاب الطرق لم يكن من أجل إثبات نظرية معينة فى التصوف الاسلامى بقدر ما كان من أجل تمهيد الأرض الصالحة لتحقيق الإصلاح الدينى الذى يسعى إليه . ومن أجل ذلك كان موقفه من أصحاب الطرق الذين تعاونوا مع الاستعمار الفرنسى ضد الشعب وذهاب وفد منهم ليعلن ولاءه للوالى الفرنسى وينبهوه إلى خطر المصلحين ، والواجب عليهم فى نظر ابن باديس أن يكونوا هم المصلحون كما كان موقفه من أصحاب فكرة أن العبادة يجب أن تكون لله دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب ، وكذلك رده

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور محمد عمارة فى ملف الطليعة ص ٨٩ . وما كتبه الدكتور السيد محمد عشماوى فى مجلة الجمعية الفلسفية العدد الأول ص ١٠٢.

(٢) راجع : عمر بن قنية : عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية.

على أصحاب الطريقة التيجانية ، والطرق الأخرى من أصحاب مظاهر الشرك أو الغلو فى الدين .

ولقد حدد ابن باديس موقفه من التصوف عموماً ومن أصحاب الطرق على الخصوص كما حدد الخطوات العملية للإصلاح الدينى والتصوف بوجه عام فى :

١- ضرورة التميز بين الدين والتصوف ، وبين التصوف الحقيقى وما يدعيه أصحاب الطرق بأنه من الدين أو من التصوف ، لأن التصوف الحقيقى هو التصوف السنى ، أو هو التصوف القرآنى الذى يقوم على أصول ثابتة وواضحة من القرآن والسنة ، ويتطلب تحققه قراءة القرآن وفهم معانيه وإستيعاب أحكامه وتطبيقه لها . فالقرآن فيه علاج القلوب وشفاء النفوس .

٢- إن التصوف الحقيقى هو الذى يبعد عن الشرك وينقذ صاحبه من الضلال ، ويحقق الوعى الدينى ويسهم فى إصلاح المجتمع وتطوره .

٣- إن التصوف الحقيقى لايقف عند غاية الوصول إلى الله أو المعرفة بالله عن طريق المجاهدة ، بل يجب أن يتعدى ذلك ليكون أسلوبا للحياة وأداة لبناء الإنسان وتحقيق سعادته وتوازنه المادى والروحى لكى يؤدى وظيفته الإجتماعية .

٤- إن التصوف الحقيقى لابد أن يقوم على التذكير والتفكير فى القرآن ، فالقرآن أفضل الأذكار وتلاوته تطهر القلوب من الغفلة والقسوة والأوهام والشكوك والجهالات .

٥- إن التصوف الحقيقى لابد أن يرتبط بالحياة والمجتمع ، ولهذا لم يسمح ابن باديس بإنتشار صور الغلو فى التصوف أو الدين بين العامة أو الخاصة وعمل على بيان خطرها عند إنتشارها وأنها السبب فى هلاك الأمم وتأخرها ، ولذا أوجب ضرورة مواجهة أعمال الشرك والجاهلية التى يأتيها بعض أدعياء التصوف وبيان خطرها على الدين والمجتمع .

٦- ضرورة إستخدام العقل بوصفه الفرقان الذى تكون به التفرقة بين الحق والباطل والخبيث والطيب ، عند مواجهة أصحاب الأتجاهات الفكرية الضالة والتى تدعى النبوة والصلاح ، وتمارس كافة مظاهر الشرك والوثنية . وذلك إقتداء بما فى القرآن والسنة ومواقف رجال السلف الذين تأسوا بموقف النبى فى الإقتداء بمن سبقه إستجابة لقوله تعالى :" أولئك الذين هدى الله فبهداهم إقتده ".(١)

وهذه أهم مواقف ابن باديس العملية لمواجهة أدعياء التصوف والتى تؤكد أن موقفه من التصوف ليس الرفض بل الإصلاح والتوجيه والتصحيح ، وهى :

أ - **موقفه من أصحاب الشرك والضلال** : وهو موقف لازم لتصحيح العقيدة وتحقيق المنهج الإصلاحى ، ولإعتقاده بأن لا إصلاح للمجتمع إلا باصلاح كل فاسد ومنحرف ومقاومة البدع وأنواع الشرك بما فيها من جهل وضلال وإفتراء على الدين ، فكان أصحاب الطوائف تأتى أعمالاً ليست من الدين وليست من التصوف فى شىء : مثل عبادة غير الله كالأوثان ، والدعاء للأئمة والصالحين لكشف الضر وجلب النفع وهو سؤال ودعاء لغير الله.

ويصف ابن باديس أحوال هؤلاء وإدعاءاتهم الباطلة البعيدة عن الدين فيقول: إن فى الناس اليوم طوائف كثيرة لها أشجار ولها أحجار تسميها بأسماء وتذكرهم بالتعظيم وتذبح عندها الذبائح وتوقد عليها الشموع وتحرق عندها البخور وتتمسح بها وتتمرغ عليها مثل فعل الجاهلية أو تزيد .(٢)

ويوضح ابن باديس خطر هذه الأعمال والإعتقادات الفاسدة فيقول : " إن عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم كانوا يعلمون أن الله هو خلقهم وهو

---

(١) الأنعام : ٩٠

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٢ ص ٢٣٨ وفى مقاله : الشرك والوثنية ودعوى النبوة. مجلة الشهاب عدد إبريل ١٩٣٥ . ص ١١-١٣

يرزقهم وهو المالك لجميع مخلوقاته ، ولكنهم كانوا يجعلون توجههم وتقربهم وتضرعهم لآلهتهم على إعتقاد أنها تقربهم إلى الله ، وفى الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين على اعتقاد أنها تقربهم إلى الله .. فهذه الطوائف لحقت بالمشركين . ويقول أيضا موضحا حقيقة الشرك وأعمال المشركين وأخطارها .. " إن اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله فى شىء ما شرك وضلال وأن بناء القبور ووقد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والإستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاة لأعمال المشركين ، وخطر هؤلاء أنهم كانوا ينفثون روح التخاذل بين أتباعهم وكانوا بلاء على الأمة فى الداخل والخارج بما تشيعه أعمالهم وعقائدهم الباطلة من بعد وتحريف للإسلام .(١)

ب- **موقفه من أصحاب العزلة وأدعياء الزهد** : حيث أكد لهؤلاء أن الزهد الحقيقى هو الدين وهو التصوف ، وأن الإصلاح الدينى يمكن تحققه إذا طبق التصوف الحقيقى القائم على الزهد ، وأن الزهد ليس هو ترك الدنيا ، وليس هو الذى يصرف الناس عن العمل ويحبب إليهم التواكل وينكر الحرية والإرادة ، وليس هو زهد هؤلاء الذين أخذوا أنفسهم وأتباعهم بمسلك الأعاجم وأخترعوا أوضاعاً وأعمالاً وعقائد من عند أنفسهم وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله ، وأشاعوا المنكرات فى الموالد بما فى ذلك من مخالفة لسنة النبى ﷺ وصحابته . وأوضح ابن باديس لأدعياء الزهد والعزلة ، أن العزلة فى الإسلام تختلف عن العزلة الهندية أو الرهبنة المسيحية ، لأن عزلة النبى ﷺ وأختلاؤه فى غار حراء بعيدة فى معناها ومضمونها عن فكرة الإختلاء الهندية حيث ينعزل أحدهم عن الناس تماماً

---

(١) راجع : ابن باديس : العقائد الإسلامية ، الجزء الثانى من حياته وأثاره جـ٢ ص ٢٣٨ ، مجلة الشهاب جـ١ م ١١ عدد ابريل ١٩٣٥ . ص ١١-١٣

ويذهب في أودية الخيال لتحصيل حالة نفسية خاصة به يعدها نعيما روحياً ، أما الإختلاء النبوى وانعزاله كان للتفكير والتدبر لايجاد طريق خلاص لهذا العالم من الضلال والقيام بخدمة عظيمة عامة للبشر وشتان بين الحالتين .(١)

جـ- **موقفه من أصحاب الإتجاهات الحلولية وأدعياء النبوة** : لم يلجأ ابن باديس إلى السلطة السياسية لوقف إنتشار آراء هؤلاء الذين يدعون النبوة ويرتكبون أخطاء توقعهم فى التشبيه والتجسيم ، بل حاول إقناعهم وتصحيح أخطائهم وكشف نواياهم وإتجاهاتهم ، وكان ذلك من خلال رسالة مكونة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة بعنوان : مقام النبوة والرسالة ومخاطبة ذلك المقام بخطاب الجهالة .. وفيها قام بالرد على أصحاب الطريقة العليوية لما فيها من غلو وخيالات فلسفية فى وحدة الوجود والبرهمية الهندية . وقال واصفا غلوهم وضلالهم : " قد شغل بهذه الخيالات أفراد عن فطرة الله وشرعه معاً ، فجعلوها أعلى مراتب العبودية وتأولوا لها بعض أيات الكتاب العزيز كقوله تعالى : يريدون وجهه "(٢)

وما إرادة وجهه تعالى إلا الإخلاص له فى كل عمل مشروع من مصالح الدين والدنيا . وإرادة وجهه ليس معناه الوصول إلى ذاته بعد التجرد من كل نعمة فى الدنيا والآخرة جميعا ، فإن الإتصال بتلك الذات العلية القدسية التى لا تدركها العقول ولا تدنو من كنهها الأفكار ولا الأوهام مالم يتعلق به تكليف ولم يرد به شرع ..

وأن الغاية الحقيقية من التصوف وسلوك الطريق هو مرضاة الله وشعور

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور مصطفى حلمى فى : الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة ص ٢٢٧-٢٣٠

(٢) الأنعام : ٥٢

العبد برضى الله عنه هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الألسن ، وأن العمل الصالح هو الذى ترتضيه العقول وتستعذ به الفطرة ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبلغ به مرضاة الله .

وفى إطار موقف ابن باديس المدافع عن التصوف الحقيقى فإنه يبرهن على براءة إتهام الحلاج بالخروج عن أصول الشرع أو أنه قال بالاتحاد أو الحلول ويؤكد على أن رأى الحلاج فى حقيقته ينفى الامتزاج بين الانسان والله بدليل قوله: وكما أن ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتيتك غير ممازجة لها ، فلا هوتيتك مستولية على ناسوتيتى غير ممازجة لها . وكذلك قوله : من ظن أن الالهية تمتزج بالبشرية والبشرية تمتزج بالالهية فقد كفر لأن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم وأنه تعالى لا يشبههم بوجه من الوجوه ولا يشبهونه .

وعلى ذلك فإنه يؤكد أن الفناء التام والزهد التام ليسا من الحب الالهى أو التصوف الحقيقى فى شىء وأنه من المستحيل تعقل فكرة الإتحاد أو الإمتزاج بين الله والإنسان .(١)

ثم يكشف ابن باديس فى وضوح حقيقة أدعياء النبوة مبينا أنها ليست من الدين ولا من التصوف فيقول : قد ضلت وهلكت بأتباع أشخاص ادعوا النبوة من هذه الأمة طوائف كثيرة ، وقد كان منهم أول الإسلام مسيلمة الكذاب والأسود العنسى ثم كان المختار بن عبيد الثقفى ، ثم كان منهم فى عصرنا قبيلة الباب وإليه تنسب البابية ، والبهاء وإليه تنسب البهائية ، وغلام القاديانى وإليه تنسب القاديانية . وقد كادت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلول وشيخها لولا أن قام فى وجهه العلماء المصلحون وفضحوهم على صفحات

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ٥٤ وفى جـ٢ ص ٣٠١ ، جـ٣ ص١٣٣-١٤٢

"الشهاب" أيام كان أسبوعيا . فرد الله كيدهم ووقى الله الجزائر شراً عظيما وقد. أخبر النبى ﷺ عن هؤلاء الكذابين بأنهم ثلاثون فلابد أن يصلوا إلى هذا العدد وقد تكون بقيتهم فى أحشاء الأيام .(١)

د - **موقفه من أصحاب مظاهر الغلو والبعد عن الدين** : الذين أدخلوا السحر والشعوذة وأعمال الدجل والكهانة فى الدين فكان موقف ابن باديس الحازم فى كشفهم وبيان زيف إعتقادهم فقال فيهم : أنهم كانوا يتخذون من القرآن وآياته وأسماء الرحمن هزواً وكانوا يستعملونها فى التمويه والتضليل والقيادة والتفريق ويرفقونها بعقاقير سمية ويهلكون العقول والأبدان ، وحاول ابن باديس أن يؤكد على أن التصوف الحقيقى بعيد عن كل هذا الدجل ، وأنه يقوم على العلم والعمل الصالح بدليل أن القرآن الكريم فيه نهى صريح عن السحر والكهانة والإعتقاد فى الخيالات والأوهام.(٢)

ولهذا كان موقف ابن باديس من هؤلاء هو التحذير من خطرهم وكشف أخطائهم وما فى أعمالهم من شرك وخرافه وبعد عن صحيح الدين وكان يحذر من ذلك بقوله : " إحذر كل دجال يتاجر بالرقى والطلاسم ويتخذ أيات القرآن

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره : جـ٢ ص ٢٣٩

يمكن مراجعة نظريات الوحدة والحلول والفناء عند فلاسفة المتصوفة عند كل من : الجنيد ت ٢٩٨ هـ ، الحلاج ت ٣٠٩ هـ ، السهروردى ت ١١٩١ .م وابن عربى ت ١٢٤٠ .م وابن سبعين ت ١٢٧٠ .م

أنظر : ابن سبعين وفلسفة الصوفية د. التفتازانى ص ٩/١٠

: تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الأفريقية د. يحيى هويدى ٢٣٢/٢٤٢

(٢) راجع آيات السحر فى القرآن الكريم سورة البقرة والمائدة والأنعام والأعراف ويونس وهود وطه وغيرها .

- راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - إعداد محمد فؤاد عبد الباقى ص٣٤٦ - ٣٤٧

وربك يقول لك : إذا سألت فاسأل الله .. ويقول تعالى : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون " (١) وفى قوله تعالى : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين " (٢)

هـ- **موقفه من جماعة ترك العبادة** : الذين يهدمون فكرة الخوف والرجاء، وكان يمثل رأى هذه الجماعة ما أعلنه شيخها المولود الحافظى فى مقاله بجريدة البلاغ الجزائرية : جاء فيه أن العبادة يجب أن تكون لله دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب لأن كمال التعظيم لله ينافيه أن يصاحب العبادة خوف من العقاب أو رجاء الثواب .

فكان موقف ابن باديس هو الرد العملى فى مقاله بجريدة الشهاب - عدد رمضان ١٣٥١هـ . بعنوان : أيهما أكمل العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما ؟ وجاء فيه :

.. إن حقيقة العبادة هى غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار ، ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل ، ومن مقتضى الإفتقار أن يرجو ويطمع ، وأن العبادة فى الإسلام وضعت على خوف العقاب ورجاء الثواب لما فى ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وإفتقاره أمام ربه المهيمن العظيم.. فكيف يهدم هؤلاء فكرة الخوف والرجاء التى ترتبط بالثواب والعقاب ويقولون: إن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص فى عبادة الله .

وحاول ابن باديس بمختلف الأدلة العقلية والنقلية إثبات أن هؤلاء يهدمون صروح التوحيد بهدمهم أصلاً من أصول العبادة لله ، وأن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم فقراء المدعين لطريقة الزهد المتمسكين بالبدعة يذهب بهم غلوهم إلى أن

---

(١) البقرة : ١٨٦

(٢) الأعراف : ٥٤

يعتقدوا فى أن الكمال يكون فى عدم طلب الدنيا والآخرة ويزعمون أن العبادة تتجرد عن الرجاء والخوف فهذا زعم باطل لأن العبادة المتجردة عن الرجاء والخوف ليست بالعبادة التى جاء بها الاسلام لأن العبادة الشرعية موضوعة على الرجاء والخوف ، وأن الطمع فى فضل الله لا ينافى إخلاص العبادة له .(١)

و - **موقفه من أصحاب الطريقة التيجانية** : بوصفها واحدة من الطرق الضارة بالإسلام ، وكان موقفه فى محاولته دحض مزاعم أصحابها بمختلف الأدلة العقلية والنقلية وأقوال السلف والأئمة الصالحين .

وبدأ ابن باديس رده عليهم بعرض مزاعمهم الباطلة ومنها :

١- أن قراءة صلاة الفاتح أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة وذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن .

٢- أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثوابا إلا لمن إعتقد ذلك .

٣- أن صلاة الفاتح علمها النبى لصاحب الطريقة الشيخ محمود التيجانى ولم يعلمها لأحد غيره .

٤- أن صاحب الطريقة أفضل الأولياء .

٥- أن من إنتسب لهذه الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب وتغفر ذنوبه كلها الصغار والكبار حتى التبعات .

ثم بعد ذلك جاء رد ابن باديس فقال : إن صلاة الفاتح ليست من كلام الله لأنها ليست مثل الصلاة الإبراهمية ، وأن النبى ﷺ لم يعلمها لصاحب

---

(١) راجع رد ابن باديس فى مقاله تحت عنوان زيادة بيان على قوله تعالى : " والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ".

، وفى التفسير الباديسى ص ٣٣٢ ، ٥٣٣

طريقتهم ، وأنه لا فضل لأتباعه إلا بتقوى الله ، وأن القرآن الكريم وحده كلام الله أما صلاة الفاتح فهى من كلام المخلوق ، ومن اعتقد أن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله كفر بجعله لله نداً ، فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق . هذا إذا كانت الأفضلية فى الذات أما إذا كانت الأفضلية فى النفع فإن الأدلة النظرية والأثرية قاطعة بأفضلية القرآن على جميع الأذكار وهو مذهب الأئمة من السلف عن الخلف .(١)

ثالثاً : مقامات الأدب الصوفى عند ابن باديس :

يجب أن نقرر بداية أن الامام ابن باديس لم يكن صوفيا ولا صاحب إتجاه صوفى ولكنه كان صاحب رؤية للتصوف الحقيقى والصوفى المتأدب على الحقيقة، وأن أهتمامه بالتصوف والطرق الصوفية كان لغاية إصلاحية ودينية وهى تنقية الدين من مظاهر الغلو والشرك والضلال .

وفى هذا الإطار قدّم لنا العديد من الآراء الهامة والقواعد اللازمة لإصلاح الدين والتصوف وعرض لأهم مقامات الأدب الصوفى وفى مقدمتها مقام القرب من الله والحب والمعرفة والتوبة والزهد .. كما بين حقيقة الأدب الصوفى والأسس الواجب توافرها فى مقام الأدب مع الله ومع الناس لأن التصوف القرآنى عنده كله أدب ومن شروط الأدب الصوفى التى أوضحها ابن باديس .

أ أن هذا الأدب هو الذى يلزم المتصوف التأدب مع الله ومع النبى ﷺ ومع الناس ، وعلى ذلك فإن أكثر الناس محافظة على الأدب وتحريضا عليه هم شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين .

---

(١) راجع رد ابن باديس على مزاعم هذه الفرق فى مقاله بعنوان : جواب صريح . مجلة الشهاب عدد سبتمبر ١٩٣٨ . جـ٧ . وفى ابن باديس : حياته وآثاره . عمار الطالبى جـ ٣ ص ١٤٢ - ١٥٠ وفى كتاب ابن باديس من هدى النبوة ص ٢٣٥/٢٣٩

ب- أن هذا الأدب يستلزم إبطال زعم كثير من الألقاب التى لقب بها بعض المتصوفة مثل قطب الزمان الفرد الذى يعتقد أن الكل دونه ، والعارف بالمسالك وغيرها .. فيجب ألا تطلق جزافا على كل من يدعى التصوف أو المعرفة لأنها من صفات العارفين الواصلين وأسمى درجات العارفين الكاملين.

جـ- أن هذا الأدب يستلزم عدم الغرور ، لأن من الأدب عدم الإدعاء بعلو منزلة الأولياء والصالحين الذين يأتون بما لايصدر عن العامة الجاهلين . فالغرور والغفلة أعظم أسباب المحنة ، وأن حسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن ، وأن غاية الأدب الصوفى الوصول إلى هذا المقام ، مقام الأدب مع الله ومع الناس . فنرى الصوفية أكثر الناس أدبا مع شيوخهم ومربيهم ومريديهم حتى قال قائلهم : من لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.(١)

ويرى ابن باديس أن مقام الأدب مع الله يتفرع عنه عدة مقامات أهمها :

١- **مقام القرب من الله** : وهو مقام رفيع يبتغيه كل من سلك الطريق وفيه السكينة والإطمئنان ، وفيه يكون السالك فى حالة نفسية خالية من كل قلق، وغاية هذا المقام الحصول على مرضاة الله ، فشعور العبد برضى الله هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الألسن ، ولأن الغاية التى يسعى إليها الساعون ويعمل لها العاملون هو رضى الله .

فالعمل الصالح وحده هو وسيلة هذا القرب ، إنه العمل الذى ترتضيه العقول وتستعذ به الفطرة ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبلغ به مرضاة الله .

ويرى ابن باديس أن مقام القرب أدب دائم لأن الأدب سيكون فى الوقت

---

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٣ ص ١٤٢

والحال والمقام ، ومن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب .(١)

٢- **مقام التوبة** : ويسميه ابن باديس أحيانا بمقام الأخلاص والعبادة على إعتبار أن العبادة عمادها التوبة والعمل والعلم الجامع الصحيح بقواعد الإسلام وأصوله وهو سبيل الإنسان الى المغفرة والطهارة .

ويصف ابن باديس طريق ذلك المقام بقوله : إن كثرة الرجوع الى الله يقابلها كثرة المغفرة منه ، فلا يفتأ العبد راجعا راجيا المغفرة ولا تصده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع ، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون ويغفر لهم ولا يزالون كذلك ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفوراً .

فالتوبة هى السبيل السالك الطريق نحو المعرفة والكمال .. وهو الطريق الوحيد لبناء الانسان وخلاصه ، ومن ثم فلا تصوف إلا عن علم وفهم للشريعة وأصولها ، والعمل الناتج عن الإيمان القوى بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالتوحيد التام لله الواحد الأحد .

٣- **مقام المعرفة** : والمعرفة فى هذا المقام لها خصائصها المميزة لأنها ستكون معرفة بالحق وبالحقيقة ، وهى صادقة بذاتها لأنها معرفة بالذات الإلهية ، وهى أيضا فطرية وباطنية وإلهامية وكشفية وروحية .

والسالك فى مقام هذه المعرفة لابد أن يتدرج بمختلف المجاهدات فى مختلف المقامات والأحوال ليصل فى النهاية إلى معرفة الله التى هى أمر فطرى فى

---

(١) يمكن مقارنة آراء ابن باديس هذه بآراء كبار الصوفية القدامى أمثال الجنيد ت ٩١٠م وأقواله فى مراتب القرب ، وأن المتصوف يستطيع أن يصعد إلى عالم النور وأن يتحد بخالقه فتكشف أمامه الحجب ويطلع على المغيبات وما قاله ابن عطاء الله السكندرى ت ٧٠٩هـ . فى الشهود والقرب والأحدية .

وأنظر : د. أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ص ٥٩ ، ٦٥

النفس . والطريق إلى هذا المقام يبدأ بكثرة التفكر والتأمل فى آيات الله الكونية وبالمزيد من المعرفة والقرب فيقوى الايمان ويتقدم الإنسان فى مراحل أعلى من المعرفة ودرجات الوصول .

ويرى ابن باديس : أن أعلى مراتب معرفة الله تعالى فى الدنيا هى معرفة كل شيء به ومعرفته فى كل شيء وبكل شيء ، وأما أعلى مراتب معرفته فى الآخرة فهو مقام الرؤية بتجليته الأعلى فى جنات عدن . ولما كان إدراك كنه الذوات المخلوقه له تعالى فوق إستطاعة خلقه فإن الاشتغال بذكر الجزاء عن العمل الموصل إليه جهل لا علم ولا معرفة ، فلابد إذن من العمل مع المعرفة ، والإقلاع عن العادات والبدع ، والإقبال على التهليل والتحميد والتسبيح ، فيحرر العارف روحه من سلطان المادة ويسمو إلى عالم علوى ، عالم الطهر والكمال ، ثم يقبل على تلاوة القرآن بتدبر فينير قلبه وروحه ، ويحرر عقله من ربقة الجهل وقيود الأوهام والخرافات .(١)

٤ - **مقام الحب** : مقام رفيع فى الأدب الصوفى لأنه يجمع بين كونه وسيلة وغاية فى نفس الوقت ، فهو الغاية التى من أجلها يسعى كل مؤمن صالح من رياضته ومجاهدته ، وهو أيضا وسيلة ومرحلة لتحقيق الوصول إلى حب الله والخلق والأشياء .

- ويرى ابن باديس أن خير مثال على هذا المقام - هو الحب النبوى حيث يبدأ المحب للنبى بالتأدب معه فى الأقوال والأفعال ، حتى يكون موقف المحب من الأنبياء كموقف العبيد من السادة . فيجب علينا معهم - أى الأنبياء - إعتقاد الحرمة وإكبار الجانب ولزوم الأدب فى الأقوال والأفعال وجميع الأحوال . وأن

---

(١) ابن باديس حياته وأثاره جـ١ ص ١٧١ ، وفى صفحات من الجزائر ص ٨٣

مقام الأدب فى الحب النبوى معروف عند السادة العارفين وهم أرسخ الناس قدماً فى محبة النبى ﷺ ويظهر ذلك فى صلواتهم وأدعيتهم ومناجاتهم وشوقهم .

- ويؤكد ابن باديس على عمومية هذا المقام وعلو شأنه لأن التأدب مع النبى مكلف به الجميع أى الإنسان العادى والمتصوف معاً ، لأن هذا الأدب ضرورى لكل مسلم ولكل إنسان . إذ أن من لا يراعى الأدب فى خطاب سيد المرسلين كيف يصلح أن يكون من العارفين السالكين ومن لا يؤدب نفسه كيف يؤدب غيره .(١)

- ويؤكد ابن باديس كذلك على أهمية ذلك المقام ، ويرى أن هذا المقام كله خير وقد سار فيه جميع الصحابة ، وأن الحب النبوى يجب أن يكون بعيداً عن المصالح الدنيوية ليكون موافقا لحب الصحابة والتابعين والصالحين.

ولهذا كان قول ابن باديس لهم : اعلموا أن خير هذه الأمة هم أحبها فى نبيها وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان المعصوم وعلى قدر حبهم فيه كان تعظيمهم له وأدبهم معه .(٢)

٥- **مقام الزهد** : وهو مقام رفيع وصل إليه زهاد الصدر الأول فى الإسلام . ويقصد بهم ابن باديس كبار الصحابة وأوائل الزهاد أمثال : الحسن البصرى ت ١١٠ هـ ، ابراهيم بن أدهم ت ١٥٩ هـ. ورابعة العدوية ت ١٨٥هـ. وغيرهم .

وهؤلاء تميز تصوفهم بالزهد فى الدنيا والإتجاه نحو الآخرة مع التمسك بالطاعات والقربات ، وكان الزهد والورع والإخلاص عندهم وسيلة لا غاية

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره جـ٣ ص ١٦٠-١٦١

(٢) د. محمود قاسم : ابن باديس الزعيم الروحى. ص ٩٢-٩٥ وفى آثار ابن باديس جـ٣ ص ١٦١

وسيلة للقرب من الله والوصول الى المعرفة . أمـا أدعيـاء الزهـد والتصـوف الذيـن عارضهم ابن باديس فقد بالغوا فى الزهد وهجروا الدنيـا والعمـل ، وابتعدوا عـن الحياة والناس وأصبح الزهد عندهم غاية ، وهؤلاء عارضهم ابن باديس وبيّـن لهـم حقيقة الزهد فقال : صحيح إن حقيقة الدنيـا وراء قشـورها الظـاهرة ولكـن ليـس معنى ذلك أن يستهين المتصوف بعظمة الدنيـا وأن تهـون عليـه رهبتهـا ورغبتهـا ، فليس ذلك من الزهد أو التصوف ، وأزهد من الصوفى الذى لايملـك الدنيـا ذلـك الصوفى الذى لا تملكه الدنيا ولايداخله الوجل ممن يملكونها.(١)

رابعاً : النتائج العملية لمواقف ابن باديس الإصلاحية :

١- تم بالفعل تصحيح العديـد مـن المفـاهيم الخاطئـة التـى كـان أصحـاب الطرق يظنونها عبادة وهى فى الحقيقة مظاهر للشرك بالله . وتراجع عدد غير قليل منهم وانضموا إلى صفوف ابن باديس وجمعية العلماء لينشروا الدين الصحيح .

٢- ظهرت يقظة العلماء ورجال الدين فى الجزائر كما ظهـرت طبقـة مـن المثقفين يؤمنون بضرورة الإصلاح الدينى الشامل بوصفه الأسـاس فـى بنـاء الدولـة والعمران ، فأدى ذلك إلى الحد من انتشار إدعاءات أصحاب الطرق الخارجة عـن الكتاب والسنة وتم عزل الكثير منها عن الشعب .

٣- أثبت ابن بـاديس بـالقول والعمـل أن القـرآن كتـاب عقيـدة ومنهـاج حياة، وأنه مصدر وأساس كل فكر وفلسفة تتخذ منه ومـن أحـاديث الرسـول ﷺ قاعدة وهاديا ، ونتيجة لذلك أصبحـت الدعـوة إلى التنزيـه والتوحيـد محـوراً لكـل تفسير وأساساً لكل دعوة إصلاحية ومن أجل هذا وصف ابن باديس بأنه المخلـص والنور والمصلـح لأمته الـذى يهديهـم ويقودهم إلى المستقبـل الأفضـل لأنه العارف

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٣ ص ٤٨١-٥١٤

بسبيل السعادة والنجاة ، والسائر على هدى السلف والسيرة النبوية .

وكان الأثر المباشر لدعوته الصادقة ظهور مدرسة فى الإصلاح الفكرى والأخلاقى والإجتماعى فى الجزائر والعالم العربى من تلاميذه والسائرين على نهجه فى الدعوة والاصلاح وتسمى بالمدرسة الباديسيه. مع الاجماع على أثر هذه المدرسة الواضح الآن فى النهضة العربية المعاصرة.(١)

٤- أثبت أن التوحيد أساس الدين وأساس جميع الأعمال ، وأن كل شرك فى الاعتقاد أو الفعل فهو باطل ، ولذا وجب ترك جميع البدع والمنكرات الدخيلة على الإسلام ، وأن البدعة هى كل ما لم يثبت عن النبى قوله أو فعله .

ونتيجة لذلك ظهرت بوادر النهضة العلمية واختفت العديد من الزوايا والطرق الخارجة عن روح الإسلام ، وانتشار الوعى بضرورة الاعتقاد بأن العلم والعمل معاً أصل الإيمان وأن ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره ، وقد يدخل فى عموم عمله ما يكون سببا له كالذى يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه وما سنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بها من بعده.(٢)

٥- أثبت أن التربية القرآنية التى تعتمد على تفسير القرآن والحديث غايتها عملية وهى المزج بين الروحية والمادية ، ومحورها كرامة الإنسان وحريته المبنية على سيادة العقل وسيادة إرادته . وأن هذه التربية عمادها التفاؤل الذى يبعث على الثقة فى النفس فتدفعها إلى العمل بإرادة وشجاعة ، وهى السبيل لتحقيق أمل اليوم والغد معاً ، وإقامة كيان متحد متسلح باليقظة ، ومهمته حماية الوطن والحضارة

---

(١) ابن باديس : العقائد الإسلامية ص ٢٤-٢٥

(٢) ابن باديس : حياته وأثاره جـ ١ ص ١٦٩-١٧١

وحفظ التراث وإثرائه ، وأن ذلك يكون بالإجتهاد والمعاصرة والمواءمة مع التطور الزمنى والبيئى .(١)

٦- أثبت ابن باديس عمليا أن الدين تسامح والأمل حياة ، وأن تغليب السلام والأخوة والمحبة ونبذ العنف والعصبية والشر لا يكون إلا بتصحيح الفكر والاعتقاد وغربلته وإقصاء القشور وتأكيد مبادئ التضامن الإجتماعى وأهمها العدل والمساواة بين الأجناس ، وأن العمل هو المقياس الوحيد للمفاضلة بين الناس.

٧- انتشرت اللغة العربية بين طبقات ومناطق كثيرة فكان له الأثر الكبير فى تجديد العاطفة الدينية الصادقة ، مما أحيا فى الأمة روح المطالبة بحقوقها وفى مقدمتها الحرية الدينية التى كانت فرنسا تتظاهر باحترامها.(٢)

٨- الإهتمام الملحوظ الآن بآراء ابن باديس : والأثر الواضح للمدرسة الباديسية فى الإصلاح على العديد من المفكرين وأساتذة الفلسفة فى مصر والعالم العربى ، أنظر فى ذلك مؤلفات كل من د. محمود قاسم ، د. يحيى هويدى ، د. مصطفى حلمى ، د. أحمد الجزار ، د. محمد البهى ، د. عمار الطالبى ، تركى رابح ، نور الدين حاطوم ، د. محمد طه الحاجرى ، فهمى جدعان ، د. السيد محمد عشماوى ، د. منى أبو زيد ويلاحظ أن هذا الأثر قد بدأ منذ ظهور ابن باديس وانتشار آرائه واستجابة العديد من المفكرين والمثقفين المعاصرين له لدعوته الإصلاحية وكان فى مقدمتهم مالك بن نبى والشيخ البشير الإبراهيمى والعديد من شعراء وأدباء الجزائر وكان منهم محمد الهادى السنوسى الزاهرى أحد شعراء

---

(١) راجع التفسير الباديسى ، وما كتبه أنور الجندى فى أضواء على الفكر العربى ص١٨-١٩.

(٢) د. محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ص ٦١

الجزائر وعلمائها والذى اعترف بفضل ابن باديس وأثره الإيجابى عليه فقال : كنت قبل صحبتى هذا الإمام ولوعاً بأباطيل الخرافيين من الطرقيين راسخ اليقين فى الإيمان بطواغيت الدجالين.(١)

(١) د. محمد طه الحاجرى : جوانب من الحياة العقلية والأدبية فى الجزائر ص ٩٣

الفصل الثانى
منهج الإصلاح الأخلاقى

أولاً : قواعد المنهج :

لقد حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية فى صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة ثم فى صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمى وإرشادى يسهل التعريف به والدعوة إليه ، وكان يردد تلك النداءات فى محاضراته ومقالاته وتفسيراته وأثناء رحلاته أيضا ، فاستطاع بذلك أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والعدل والصدق والحب والتسامح وغيرها ، إلى برنامج عمل إصلاحى أو نظرية متكاملة فى كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه ، وقدمها كنموذج للأخلاق العملية التى تقوم على أساس دينى واجتماعى .

ووضع ابن باديس مبادئ الأخلاق الإسلامية فى صورة وصايا يجب إتباعها والعمل بها ، وبيّن مدى فائدة الإقتداء والامتثال لهذه الوصايا فقال : إن من يتمسك بها يكون إنسان المدنية ورجل السياسة ، وسيداً حقيقياً ، يرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم . كما قدّم هذه الوصايا بقوله : هناك آداب تقتضيها إنسانيتك يفرضها عليك دينك ، وتستدعيها مصلحتك فى هاته الحياة ، ومن هذه النداءات : " ثق بأن سياسة الصدق والصراحة والإخلاص المرتكزة على الحب والعمل والتعاون لابد وأن تظهرك أمام العالم بمظهرك الحقيقى رغم كل الغيوم التى ينشرها حولك خصومك ومنافسوك فتعطيك إذن حقوقك ، فبالصدق

والصراحة والإخلاص تحيا حياة طيبة لجميع أبناء العالم العاملين المخلصين .(١)

ولكى يضع ابن باديس هذا البرنامج الأخلاقى موضع التطبيق حدد مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ كإطار عام لمنهجه فى الإصلاح الأخلاقى ، وهذه القواعد هى :

(١) القاعدة الأولى : الالتزام بالمنهج القرآنى :

وفيها أكد ابن باديس على أن صلاح الإنسان وكذلك فساده متوقف على مدى فهمه وإتباعه لمبادئ الأخلاق الإسلامية ، والقرآن ومعانيه ، والامتثال لأوامره والبعد عن نواهيه ، فبذلك وحده يمكن الاعتماد على المبادئ الأخلاقية العليا والتى بدونها لا يتغير المجتمع أو أخلاقه(٢) والالتزام بالمنهج القرآنى يتطلب الإقتداء بالخلق النبوى المتمثل فى الامتثال والطاعة ، والالتزام بأخلاق القرآن ، والسير على هدى أخلاق النبى ﷺ الذى كان خلقه القرآن ، فإذا أردنا الإصلاح والنجاح علينا أن نحب كل خلق من أخلاقه وكل عمل من أعماله . كما نقتدى به فى إصلاح الأمة .

ولأن إصلاح الإنسان لا يكون إلا على أساس من المنهج القرآنى بما فيه من مبادئ أخلاقية ، فقد أعلن ابن باديس أن مهمته هى تقديم مفاهيم وقيم الأخلاق الإسلامية فى صورة حية ومعاصرة لتكون أكثر تأثيراً وفعالية فى بناء الإنسان وشخصيته وتوجيه سلوكه إلى ما ينبغى أن يكون .

(٢) القاعدة الثانية : الجمع بين النظر والعمل :

وهى قاعدة عامة للإصلاح الأخلاقى . لأن تطبيق مبادئ الأخلاق له الأثر المباشر والمؤثر فى إنماء الوعى والتفكير مع الشعور بأهمية الوجود والتطور والحياة.

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٣ ص ٧٨ - ١٧٩ ، وفى مجلة الشهاب عدد ٤٩ أغسطس ١٩٢٦ . مقال ابن باديس بعنوان أيها المسلم الجزائرى .

(٢) يمكن عقد مقارنة بين آراء ابن باديس والأفغانى فى ربط الإصلاح بالمنهج القرآنى وما فيه من مبادئ وفضائل أخلاقية . راجع الرسالة الأصلية ص ١٧٧-١٩٣

ويؤكد ابن باديس على ضرورة أن تكون القيم الأخلاقية قابلة للتطبيق اليومى ، وخاصة أن هذه القيم ليست بغريبة عن الواقع العملى وأن تطبيقها هو السبيل لتغيير هذا الواقع والتأثير فيه وتحوله من حالة الخمول والكسل إلى حالة الإيجابية والعمل ، ومن حالة الجهل إلى العلم ومن اللاوعى إلى الوعى واليقظة ، وأن هذا كله لا يتحقق إلا بالزام أخلاقى يضمن التكليف بالمعرفة والتنفيذ .

ومن ثم فإن الجمع بين النظر والعمل أو النظرية والتطبيق هو الصورة الإيجابية للسلوك العملى للأفراد الناتج عن الشعور بأهمية الوجود والتطور والحياة، وفى نفس الوقت فهو سلوك إيمانى يتميز بالإيجابية والإلزام .

(٣) القاعدة الثالثة : صدق العمل :

الخلق عند ابن باديس هو ملكة نفسية راسخة تصدر عنها الأعمال ، والأعمال هى سبيل المحافظة على الحياة ، وأما الصدق فهو مطابقة الخبر للواقع وتصويره على ما هو عليه ، والحكمة منه أنه يوصل إلى العمل الصالح الخالص وهو الخير ، والخير الذى يؤدى إلى الثواب وإلى الجنة ، وعلى العكس فإن الكذب هو الذى يؤدى إلى الشر والانبعاث فيه .(١)

ولأن صدق العمل قاعدة عامة لازمة لتحقق الخلق واكتسابه ، فإن العمل بوصفه قاعدة أخلاقية لابد أن يقوم على الصدق ، إذ الصدق فى المعاملة والمحافظة على الصحة والعقل هو أغلى ما يملكه الإنسان لأنه النور الإلهى الذى منحته لتهتدى به إلى طريق السعادة فى الحياة والمحافظة على الحياة لا تكون إلا بالمحافظة على الصحة والعقل والقومية والدين واللغة والعادات .(٢)

---

(١) سوف نتناول فضيلة الصدق فيما بعد بالتفصيل ضمن مقامات الكمال الإنسانى المرتبطة باليقين والسعادة . أنظر آخر هذا الفصل .

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٢ ص ٢٨٥ ، جـ٤ ص ٣٥-٣٨

ويشير ابن باديس إلى أهمية صدق العمل ومجالاته فيقول : كن صادقاً فى معاملاتك بقولك وفعلك ، وكن عصريا فى فكرك وعملك وتجارتك وصناعتك وفلاحتك ، وفى تمدنك ورقيك ، وحافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميع عاداتك . وإذا ما أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذى أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل .(١)

(٤) القاعدة الرابعة : المطابقة بين الظاهر والباطن :

وهذه المطابقة عنده تتطلب الربط بين الدين والأخلاق والعقل فى جميع القضايا السياسية والاجتماعية لأن مبادئ الخلق تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من القوانين الوضعية .(٢)

ويؤكد ابن باديس على أن الخلق القويم لابد وأن يكون نتيجة تطابق الظاهر مع الباطن عند الفرد أو الجماعة ، وهذا التطابق يتحقق عند القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً فى أبواب العبادات والمعاملات ، وعند تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة العامة والخاصة ، .. وقد جاء القرآن مبينا للأخلاق الفاسدة وسوء أثرها وقبح مغبتها ومبينا للأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها وحسن عاقبتها ، ومن هنا كان شفاء النفوس والعقول بالقرآن . فالمطابقة بين الظاهر والباطن والتلازم بينها عقداً وقولاً وعملاً ضرورة لتصحيح العقائد وتقويم الأخلاق ، وبها تكون سلامة الأرواح وكمالها وعليها قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها .(٣)

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٤ ٣٥-٤٢

(٢) يمكن مراجعة أقوال دوركايم وحديثه عن الأفعال الأخلاقية وأهميتها . أنظر الرسالة الأصلية ص ١٧٦ ، ٢١٥

(٣) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ١٢٧ ، وفى ابن باديس الزعيم الروحى ص ٥٠-٥١

ويوضح ابن باديس حقيقة ذلك الترابط بقوله : إن الباطن يمثل الجوهر والجوهر ما هو إلا الواقع الحقيقى الذى خلص من كل تمويه وزيف ، وأن هذا التطابق هو وسيلة القضاء على كل ما شوه هذا الواقع من أباطيل وخرافات وشعوذة كانت سببا فى انتشار المفاسد الأخلاقية فى المجتمع .(١)

(٥) القاعدة الخامسة : المطابقة بين العلم والدين :

وقد ظهرت أهمية هذه المطابقة حين قرر ابن باديس أن صلاح الإنسان وفساده إنما يتوقف على مدى إتباعه للمبادئ الأخلاقية الإسلامية والقيم الإنسانية التى يفرضها كل فكر أخلاقى وتستدعيها المصلحة العامة فى الحياة .

ولأن هذه المطابقة لا تعنى فقط ضرورة التلازم أو الارتباط بين العلم والدين بل تعنى ضرورة تأسيس الأخلاق على العلم والدين معاً ، فقد قرر ابن باديس :

أ - أن الدين أساس الأخلاق وكذلك العلم الصحيح والخلق المتين فهما الأصلان اللذان يبنى عليهما كمال الإنسان ، وان العلم أساس الأخلاق لأنه الأصل وهى الفرع .

ب- أن إتباع الخلق القويم هو سبيل رفعة قدر المسلمين وقدرتهم ، تلك القدرة التى تزداد تباعاً بالجمع بين عقائد الدين الواضحة والأخلاق الطيبة والعلم بها على حقيقتها .

جـ- أن العلم هو الإمام المتبع فى الأقوال والأعمال والاعتقادات ، وأن التمسك به ضرورة حتى تكون عقائدنا حقا وأقوالنا صدقا وأفعالنا سداداً.

د - أن الاعتماد على العقل ضرورة لكى يتجنب الناس ما هم فيه من شر وليس ذلك صعبا لأن الله قد وهبهم الدين والعقل . فديننا دين الرحمة والاتحاد

---

(١) راجع : تفسير ابن باديس : للآية رقم ٨٣ من سورة الإسراء ، والآية رقم ٥٧ من سورة يونس ، التفسير الباديسى ص ١٠١-٢٢٧

والخير ، إنه الدين الذى يعلمنا ألا نتحد على الشر أبداً ولا نضمره لأحد من الناس كما لا نقبله من أى أحد منه .

ثانيا : الفضائل الأخلاقية عند ابن باديس :

لقد اهتم ابن باديس فى تفسيره لآيات القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام ببيان أهم الفضائل الأخلاقية المستمدة من المصادر النقلية وفى مقدمتها الرحمة ، والعدل والمساواة والأمانة ، والصدق ، والاحسان ، والبر إلى اليتامى والمساكين ، والبر الى الوالدين ، والجهاد فى سبيل الله ، والحب والتسامح ، والصبر والثبات ، والإيثار ، والوفاء بالعهد وغيرها . وذلك عند تفسيره للعديد من الآيات مثل قوله تعالى :

" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ".(١)

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً ".(٢)

" وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ".(٣)

" فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ".(٤)

" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ".(٥)

" إن الله بالناس لرءوف رحيم ".(٦)

وفى غيرها من الآيات التى تحث على فضائل الأخلاق كما تحث على اكتسابها والالتزام بها وبيان فائدتها للإنسان .

---

(١) الحشر : ٩

(٢) الإنسان : ٨

(٣) الإسراء : ٢٣

(٤) الضحى : ٩-١٠

(٥) الأنبياء : ١٠٧

(٦) الحج : ٦٥

وقد حرص ابن باديس على إبراز الطابع المعيارى للأخلاق الإسلامية من خلال هذه الفضائل مع التأكيد على دورها الإيجابى والاجتماعى .

ومن هذه الفضائل :

(١) فضيلة الرحمة :

هى من أبرز الفضائل الإسلامية الجامعة والتى تتميز بالشمول والعمومية وأكثرها ارتباطا بالعقيدة والسلوك ، وأقربها إلى الوجدان ، والرحمة اسم جامع لمعانى السماحة والعفو والإحسان والعدل والحب والود والخير والرأفة ، فكل ذلك من الرحمة .

ويشير ابن باديس إلى القيمة السامية لفضيلة الرحمة المتمثلة فى الرحمة الإلهية والبشرية ، فيرى أن الرحمة هى استشعار سنة رحمة الله بخلقه ، فإذا كان الرب ، رب الناس ومالكهم على الحقيقة يعامل عباده بمقتضى هذه الرحمة التى وسعت كل شيء ، فأحرى أن يتخلق عباده بأخلاقه وتظهر عليهم آثار هذه الأخلاق فى معاملة بعضهم البعض ، كما كان النبى ﷺ رحمة للعالمين ، وكان رحمة مهداه ، وكان بالمؤمنين رءوف رحيم ، وهو النبى القائل : من لا يرحم لايرحم .(١)

وعلى المستوى البشرى يؤكد ابن باديس أن الإسلام هو دين الرحمة والرأفة والتسامح والاحترام ، لأنه دين يمقت الظلم والجبروت والطغيان وكل مظاهر الألم للبشرية والتى يسميها ابن باديس بالتوحش ويحذرنا منه بقوله : احذر من التوحش، فإن التوحش فى عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض ثم الفناء ، ولأن الظلم لا يدوم ، والتوحش لا فائدة منه ، فإنه غير ملائم لطبيعتنا ولا لعصرنا الذى نعيش فيه .(٢)

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٣ ص ٥١٢ ، راجع كذلك . عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى ص ١٢٣ - ١٧٤

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٤ ص ٣٣٨

والرحمة عنده قانون سماوى وأمر إلهى وخلق إسلامى يلزم كل الناس لأنه يتسق مع طبيعتهم ، وهى قيمة سامية وهامة للإنسان لأنها من عوامل تنظيم السلوك وحفظ النفوس وجلب السعادة والخير للإنسان .

وهناك عدة نتائج مترتبة على ممارستها والالتزام بها منها :

* أنها تجعل عواطفنا وشعورنا مطبوعة على أن تحس إحساساً متحداً لما فيه من رحمة وما فى ذلك الاتحاد من خير ، لأن الدين يأمرنا ألا نتحد على الشر أبداً ولا نضمره لأحد من الناس ، كما لا نقبله من أى أحد منهم.

* أنها مجلبة للسعادة والراحة النفسية رغم ما يحدث عنها من ألم خلقى ، إذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذى يصدم عن مفاجأة ، وأعظم منه الذى يصدم مع توقع ضده .(١)

* أنها دعوة إلى تحريم القتل ، لأن من الرحمة حفظ النفوس وحفظ النسل وعدم العدوان ، والمحافظة على الأولاد والرأفة بهم ، استجابة لقوله تعالى : " فلا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً " .(٢)

فيقول ابن باديس عند تفسيره لهذه الآية : إن القتل من المفاسد الأخلاقية وتحريمه حكمة توجه القصد إلى تطهيرهم من مفاسدهم ، ولبيان خطر قتل النفوس وضرره على الحياة والاجتماع والعمران ، مع بيان ما فى تحريم القتل من دعوة إلى الرحمة والتراحم وخاصة بالأولاد أفلاذ الأكباد ، وفيه بيان ما يترتب على القتل.

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره : جـ٢ ص ٧٤

(٢) الإسراء : ٣١،٣٣

من سوء العاقبة وأنه إثم كبير لأنه فيه قتل للنفس وقطع للنسل وهلاك للجنس وخراب للعمران ، كما أن به سوء الظن بالله وعدم خشيته وعدم الشفقة على خلقه .(١)

(٢) التسامح :

فضيلة أخلاقية عامة تتميز بالشمول والأهمية لأنها تتولد عن مشاعر إنسانية سامية كالود والحب والرحمة ، وتكمن أهميتها فى كونها لا تجعل للحقد مكانا فى نفس الإنسان . .

والتسامح عند ابن باديس موقف عملى يعكس مدى محبة الإنسان لنفسه ولغيره وينهى النفس عن الغرور وبه تكون مدافعة أهواء النفس والشيطان فى محاولة الوصول إلى الكمال ، وهو يؤكد هذا بقوله :

" إن محبة الإنسان لنفسه غريزة من غرائزه ، وهو محتاج إليها ليجلب لنفسه حاجتها ويدفع عنها ما يضر بها ويسعى فى تكميلها ، وهذه هى الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة – لأن محبة النفس لا يقلل من غلوائها وفسادها إلا الإعتقاد فى الحب والتسامح والرحمة التى تنهى النفس عن الغرور والإعتداء " .(٢)

والتسامح الحقيقى عند ابن باديس هو الذى يقوم على الحب ونبذ التعصب لأن المسامحة الحقيقية لاتكون إلا بعد العتاب الودى والحقائق الواضحة والبعد عن التعصب ، وقد أعطى ابن باديس بنفسه المثال العملى على ذلك عندما تسامح مع من حاول قتله تنفيذاً لأوامر أعدائه ، مؤكداً على أن التسامح هو المعنى الحقيقى للأخوة والإحسان حين يقول : احذر من التعصب الجنسى الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والإنحطاط ، وكن أخاً إنسانيا لكل جنس من أجناس

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٣٤

(٢) آثار ابن باديس جـ٢ ص ٤٥

البشرية ، وكن محسناً لكل أحد من كل جنس ودين ، فدينك الشريف يأمرك بالإحسان والتسامح لأن ذلك هو العمل الصالح .(١)

ويشير ابن باديس إلى أهمية الجوانب الغريزية والأخرى المتعلمة فى فضيلة التسامح بوصفها أحد البواعث الإنسانية السامية المتكونة من الرحمة والحب والصدق والقناعة ، لأنه مع الصدق والصراحة والإخلاص والحب يكون البعد عن الخيانة بنوعيها : المادية فى النفوس والأعراض والأموال ، والخيانة الأدبية ببيع الذمة والشرف والضمير . فهذه القيم بالإضافة إلى فطريتها فهى تتولد من التمسك بأصول الدين وحسن القيم والالتزام بأخلاق القرآن وما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه الأوائل الذين كانوا كالبنيان المرصوص بعيدين عن الحقد والبغض والضعف وغيرها من مظاهر القسوة ، لأنهم كانوا يتبعون منهج الأخلاق الإسلامية القائم على الرحمة والحب والتسامح والصبر والثبات والعزم والإخلاص وكان هدفهم زراعة الخير بين جميع البشر ونشر المحبة بينهم .(٢)

(٣) الإيثار :

مبدأ أخلاقى عام يعبر عن حقيقة الإلزام الخلقى ، وفى نفس الوقت يعبر عن معيارية الأخلاق الإسلامية ، وذلك لأن الأخلاق فى جوهرها تشريع وتكليف وإلزام ، وفى نفس الوقت محاولة لتحقيق المثل الأعلى وما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المسلم فى معاملته لغيره من الأفراد . ومرجع ذلك عند ابن باديس آيات القرآن الكريم والعديد من الأحاديث ، كما فى قوله تعالى : " ويؤثرون على

---

(١) فاضل خلف : عبد الحميد بن باديس مناصل بالعلم والقلم . مجلة العربى عدد يونيو ١٩٨٠ ص ١٠٦-١٠٩ وفى آثار ابن باديس . جـ٤ ص ٣٥-٤٢. وفى مجلة الجمعية الفلسفية المصرية العدد ١ س١ ص ١٠٦-١٠٧

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٤ ص ٣٥ وما بعدها . وفى الشهاب جـ٧ م١٣ ص ٣١٩-٣٢١ عدد سبتمبر ١٩٣٧. وفى العقائد الإسلامية : ابن باديس ص ٤٤-٤٥

أنفسهم ولو كان بهم خصائصه " .(١) وقوله تعالى : " وآتى ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ".(٢) وكما فى الحديث الذى رواه أبوهريرة : سبق درهم مائة ألف درهم ، فقال رجل وكيف يا رسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به .

ويرى ابن باديس أن هذ الحديث يبين حقيقة الإيثار كدافع فطرى يؤثر على السلوك الفردى والجماعى ، وأنه وسيلة لتحقيق المنافع والأغراض العامية لا الشخصية التى تحقق للأمم أغراضها ، وأن الإيثار واحد من الفضائل الفطرية التى وجدت فى فطرة الإنسان بأصولها وتنمو بحسن التربية وتنطمس بالإهمال ، وأن هذه الأخلاق الفاضلة قد حفظها الله تعالى علينا بما وفقنا من الإسلام ، وما علمنا من آداب ، وما شرعه لنا من أعمال . ومما ينمى تلك الأخلاق ويقويها المداومة على الأعمال التى تنشأ عنها ، حتى يتعود الإنسان فضيلة البذل والعطاء ، ويدرك عظيم أجر الصدقة مهما كانت صغيرة ، وما فى ذلك من حث على مشاركة الغنى فى العطاء بما يستطيع ليكون البذل من الجميع عاماً والسخاء بينهم مشتركا.

وهكذا تظهر أهمية ممارسة الإيثار بمعنى البذل والعطاء فى تدعيم القوى الروحية فى الإنسان ممثلة فى عزيمته ، وفى القوة المادية ممثلة فى القدرة على مواجهة الحياة ومشاكل التطور ، وخاصة عندما يتعاون الشعوب والأمم بمختلف طبقاتها فى إنجاح المهمات المشتركة والمشاريع الخيرية والإنسانية ، مما يرفع الأفراد والأمم لتتدرج في الكمال .

---

(١) الحشر : ٩

(٢) الإسراء : ٢٦

والإيثار عند ابن باديس لا يعنى مجرد العلو على الذات وإنغماس المرء فى المثالية والإبتعاد عن الواقع والمصلحة الشخصية ، ولا يعنى إهمال المرء لشئون نفسه ومصالحه مع إيثار غيره ، بل هو فى حقيقته نوع من المساعدة الواجبة ، وأحد الآداب العامة فى السلوك والتى تقتضيها الإنسانية لتنظيم شئونها ومواجهة مشكلاتها ، كما يفرضها الدين وتستدعيها المصلحة العامة فى الحياة .

ولهذا فالإيثار فى مقدمة عوامل الإصلاح الخلقى والإجتماعى ، والدليل الأكيد على شعور الإنسان بانسانيته ووجوده ، وهو الذى يمده بالقوة الروحية التى تولد فى نفسه العزيمة والإرادة لمواجهة الحياة ومتطلباتها . ويشير ابن باديس إلى إيجابية الإيثار والمراحل التى يمر بها بوصفه إهتمام بالنفس وعناية بالغير فيقول : لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه عقلاً وروحاً وبدناً لازمة له ليكون ذا أثر نافع فى الناس على منازلهم منه فى القرب أو البعد ، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملاً ومشتتاً لا يهديه علم ولا يمتنه خلق ولا يعجبه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه ، وإنما ينفع المجتمع الإنسانى ويؤثر فى سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه ، فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله ، فأخذ الأصول الثابتة من الماضى وأصلح من شأنه فى الحال ومد يده لبناء المستقبل ، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه ، معرضا عما لا حاجة لديه أو ما لا يناسب شكل بنائه الذى وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته .(١)

وهكذا أكد ابن باديس على أهمية الإلتزام الأخلاقى وممارسة الفضائل وفى مقدمتها الإيثار بوصفه المقوّم الأساسى للتعامل الفردى والإجتماعى ، وأنه السبيل للتطور والإصلاح ، وأنه أحد مبادئ الأخلاق القرآنية التى تعلى من قيمة الفرد

---

(١) ابن باديس: حياته وآثاره . جـ٢ ص ٢٦٢

والمجتمع، وأنه فى حقيقته إهتمام وبذل وعطاء وإنفاق من رزق الله لقوله تعالى : " آمنوا بالله ورسوله ، وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ .(١) وذلك لأن من تستقر هذه الفكرة فى عقله وقلبه فسيكون منه البذل ويكون من اليسير عليه أن يؤثر غيره وخاصة الفقراء والمساكين لينال حسن الجزاء .(٢)

(٤) الجهاد :

من الفضائل الأخلاقية الواجبة والجامعة لغيرها من الفضائل والصفات ، والتى إهتم بها رجال الدين والأخلاق على مر تاريخ الفكر الأنسانى . وقد أهتم بها ابن باديس لأهميتها وشمولها وبوصفها أجل الأعمال الإنسانية . لأن الجهاد يتطلب قوة وشجاعة ، كما يتطلب الصبر والثبات ، والإعتصام والتعاون والتفاهم والوفاء بالعهد وغيرها من مبادئ وفضائل خلقية .

* والجهاد عند ابن باديس وسيلة عملية للإصلاح والتغيير وتحقيق ما ينبغى أن يكون عليه الفرد والمجتمع مصداقا وتطبيقا لقول الحق : " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٣) وقوله : " ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " .(٤)

* والجهاد عنده سبيل بناء النفوس والضمائر ، وسبيل التحرر والإستقلال وحصول كل فرد على حقوقه ، وهو سبيل النهضة ، وهو أجل الأعمال ، ولهذا دعا ابن باديس الجميع الى التحلى بهذه الفضيلة بقوله : لا ينهض بالجليل من

---

(١) الحديد : ٧

(٢) راجع التفسير الباديسى وآثار ابن باديس الجزء الثانى ـ د. محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة ص٢٤ ومابعدها.

(٣) الرعد : ١١

(٤) الأنفال : ٥٣

الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال ، ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس ، وهم بالطبع هؤلاء الذين يتحلون بفضيلة الصبر والثبات والوفاء بالعهد ، فذلك هو الذى منحهم الفضل والتروى ، ومنحهم القوة التى تمثلت فى الإقدام والبسالة وغيرها من صفات فى مجموعها تعنى الجهاد الخلقى .(١)

* والجهاد عنده مصدر الإحساس بالأمل والحياة والمستقبل المديد لأنه يكوّن مجموعة من الذكريات والمشاعر التى تجعل الفرد يتجاوز نطاق ما قدر له أن يعيش من أمد محدود ، فالذكريات والآمال الخارجة عن حياته الشخصية هى التى تجعله كأنه عاش الدهور الطوال ، فالاحساس المديد بالحياة لايشعر به الإنسان حقا إلا بعد جهاد وصبر وثبات وشجاعة وتفاؤل بالمستقبل .(٢)

* والجهاد عنده نوع من المجاهدة أو المدافعة من أجل بناء الشخصية والمحافظة عليها ، لأن الجهاد يتطلب مدافعة الشيطان عن القلوب وحماية الأعراض من التهم ، ثم الثقة بالنفس والاخرين(٣) ولذا فإن مجاهدة النفس والشيطان تحتاج إلى الشجاعة والمصارحة . والتى يصفها ابن باديس بقوله : إن مدافعة الشيطان وحماية القلوب منه من أعظيم الجهاد وأوجبه وألزمه ، بل هى

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره : جـ٤ ص ١١-٣٤

راجع كذلك :

- محمد عزت وروزة : الجهاد فى سبيل الله فى القرآن والحديث ، مطبعة دار النهضة العربية ، دمشق ١٩٧٥.
- محمد نعيم ياسين - الجهاد . د.ت

راجع كذلك مولفات ابن القيم ، ابن تيمية ، الزمخشرى ، الغزالى ، ابن حزم وغيرهم.

(٢) راجع محاضرة ابن باديس بمناسبة المولد النبوى الشريف بنادى الترقى بالعاصمة وتلخيصها بمجلة الشهاب جـ٩ م٦ ص ٥٣٥-٥٣٩ عدد أكتوبر ١٩٣٠ . وفى آثار ابن باديس جـ٤ ص ١١-١٢.

(٣) راجع تفسير ابن باديس للحديث النبوى :" ولكم فى رسول الله أسوة حسنة " أى أسوة حسنة فى الجهاد بجميع أنواعه .

أصل الجهاد كله ، لأن الشيطان هو أصل البلاء كله ، والسلامة منه هى السلامة من كل سوء والتمكن من نيل كل خير والفوز بكل سعادة فى الدنيا والآخرة .

* والجهاد عنده الذى هو مجاهدة ليس هو الجهاد الذاتى الفردى من أجل المصلحة الشخصية أو الكمال الفردى بل هو فى حقيقته مجاهدة من أجل الآخر والمجتمع وإصلاحه ، وهو فى هذا يتفق مع العديد من رجال الأخلاق ومنهم دوركايم الذى يرى أن هدف الجهاد هو المحافظة على النفس والأسرة والوطن ، وأن الفعل لا يكون أخلاقياً إذا كان الغرض الموجود منه والذى يهدف إليه هو المحافظة على بقاء الفرد وحده دون سواه - كما يتفق مع ما ذهب إليه محمد عبده من أن الجهاد يعنى الشجاعة والمجاهدة التى تجعل المرء عزيزاً كريما بعيداً عن الأوهام والأصنام .

وهكذا كان الجهاد عند ابن باديس الوسيلة الفعّالة للإصلاح والنهوض بجلائل الأعمال ودفع الأباطيل ووساوس الشيطان ، وهو مصدر الثقة بالنفس الذى يقضى على كل شبهة وشك يمكن أن تؤذى الإنسان فى نفسه وبدنه ، فتلك المدافعة هى أصل الجهاد كله ، وقمة النيل والخير وطريق الفوز بكل سعادة فى الدنيا والآخرة .(١)

ثالثا : السعادة والكمال الأخلاقى :

ربط ابن باديس بين مفهوم السعادة ومفهوم الكمال على إعتبار أن كلاً من الكمال الإنسانى والكمال الأخلاقى مستمد من الكمال الإلهى ، وأنه لا سعادة حقيقية للإنسان ولا كمال له ولا رقى إلا باتباع ما جاء به القرآن والسنة بوصفهما السبيل لبناء الإنسان وكماله ، وأنه لا سعادة حقيقية مع النقص والضعف بل السعادة فى الكمال والقوة والسلامة .

---

(١) مقال ابن باديس : الجهاد ومدافعة الشيطان . مجلة الشهاب عدد شوال ١٩٣٤ . وفى آثار ابن باديس : جـ٢ ص ٥٨-٦٠

ويرى البعض أن التصور المعيارى الذى قدمه ابن باديس للأخلاق وخاصة فى مسألة السعادة والكمال ، لم يمنعه من الإهتمام بالمبادئ المؤثرة فى السلوك والقواعد الكلية التى تحقق السعادة للإنسان وفى مقدمتها القوة والسلامة وتحقق الهداية والإخلاص فى العبادة والطاعة التامة لله والإيمان به فى وحدانيته وكماله الى جانب إعتماده على العلم والحكمة والعدل والإحسان بوصفها الوسائل الكفيلة بتحقيق السعادة للإنسان . كما تظهر معيارية ابن باديس واضحة عندما يوحّد بين سبل السعادة وسبل الهداية والنجاة على إعتبار أن الهداية هى السبيل الأول للسعادة وفى ذلك يقول : قد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كما لهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم ، وهذه هى هداية الدلالة ، وهى من فضل الله العام للناس أجمعين ، وبها وبما يجده كل عاقل فى نفسه من التمكن والإختيار قامت حجة الله على العباد ثم يسر من شاء وهو الحكم العدل إلى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال ، وهذه هى دلالة التوفيق ، وهى من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته وأقبلوا على ما أتاهم من عنده فآمنوا به وبرسوله وبالنور الذى أنزل معه .(١)

ويحدد ابن باديس سبل السعادة ومتطلباتها فى :

أ – العلم والحكمة والعدل والإحسان :

لأن شئون الشخص وهو فى نفسه ، وشئونه فيما بينه وبين أقاربه ، وفيما بينه وبين جيرانه ، وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها، وشئون الجماعات والأمم مما به صلاح الفرد والمجموع كلها إن سلكت بعلم وحكمة وعدل وإحسان كانت سبل سلامة ونجاة وإلا كانت سبل هلاك .(٢)

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ١٦٩

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره : جـ١ ص ١٧٠-١٧١

ب- إخلاص العبادة لله :

لأن الإخلاص والطاعة يقودان إلى معرفة أن الله هو الوجود التام والكمال الأسمى ، والوجود الدائم بجوهره وذاته ، وأن كمال الوجود يعنى أن وجوده خلو من كل مادة ونقص . فهذه المعرفة تحقق الربط بين إخلاص العبودية لله وتحقق السعادة والكمال ، وفى ذلك يقول ابن باديس - إن الرب الحكيم خلقنا لعبادته وفى عبادته كما لنا وسعادتنا ، وعبادته بطاعته فيما أمرنا ونهانا وأباح لنا . وتمام العبودية فى دوام التفكير فى إنعامات الله علينا وفى البعد عن الشك فى الإعتقاد وأمور العبادات .(١)

جـ- إصلاح النفس :

لأن إصلاح الإنسان وفساده إنما يتوقف على صلاح النفس وفسادها . ولأن السعادة الأنسانية لا تكون الا بمعرفة الإنسان بحقيقته ، ولذا يقول ابن باديس : إن المعرفة التى تعلو بروح الإنسان وتسمو به هى اللازمة لسعادته ، وإن الذى نوجه إليه الإهتمام الأعظم فى تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق فالباطن أساس الظاهر .

ودليل صدق ذلك عنده : أن العناية الشرعية توجهت بكليتها إلى إصلاح النفوس : وأن الدين وكذلك الأخلاق يوجبان على المرء أن يعنى باصلاح نفسه أكثر من جسمه ، لأن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه وما البدن إلا آلة لها ومظهر تصرفاتها ، فصلاح النفس هو السبيل لصلاح الإنسان ، كما أن الصالحين هم أصحاب النفوس الصالحة الطاهرة ومعراج نفوسهم من العالم المادى إلى العالم العلوى النورانى حيث النفوس الطيبة الذكية .(٢)

---

(١) ابن باديس : العقائد الاسلامية . ص ٧١-٧٦

(٢) التفسير الباديسى ص ١٠٥ - ١١٠ ، وفى آثار ابن باديس : جـ١ ص ١٢٧ وفى جـ٢ ص ٦٦ ، جـ٤ ص ٥٠

د – تحصيل العلم وممارسة الأعمال المحمودة :

إبتداءً من فهم حقائق القرآن وإدراك معجزاته العلمية والعقلية وما إشتملت عليه من أصول كثير من العلوم التى يحتاج إليها البشر فى كمالهم وسعادتهم أفراداً وجماعات وأمماً . فلابد للسعادة من تحصيل العلم لأن أفعال الإنسان تصدر عن إرادته التى تحركها أفكاره ، وتلك الأفكار التى هى ثمرة معرفته وثقافته وتأملاته ، ومن ثم فإن المعرفة هى مصدر العمل .. وأن السعادة تنال بممارسة الأعمال المحمودة عن إرادة وفهم متصلين . وأن كل إنسان يمكن أن ينال السعادة الموجودة فى نفسه بالقوة لتصير ملكة راسخة تتجه دائما إلى فعل الخير .(١)

هـ– إستنارة العقل :

لأن طريق النفس للوصول إلى السعادة والكمال يكون بالروح والعقل ، وأن صلاح الإنسان وشفاء نفسه يكون باستنارة عقله . ويعلل ابن باديس ذلك بقوله : إن الإنسان بجزئه الترابى وهو بدنه مخلوق أرضى ، وبجزئه النورانى وهو روحه مخلوق سماوى ، فإذا جذبه جزؤه الترابى بزمام الشهوة الى السفليات الأرضية طار به جزؤه النورانى على بساط العقل إلى علويات السماء ، وهو لا يزال دائما بين هذا وذاك فى إنحطاط واعتلاء . وبما أن الإنسان لم يخلق للأرض وإن خلق منها ، وإنما خلق للسماء والملأ الأعلى ، فإنما ينتهى إلى هذا بصفاء روحه واستنارة عقله ، وما البدن الترابى إلا آلة لهما لإستكمال قوتهما .(٢)

---

(١) راجع : كتاب الملة الفاضلة للفارابى ص ٥٢ . وكتاب ميزان العمل للغزالى ص ١٠٨. وكتاب الفضائل الخلقية فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن ابراهيم ص ٢٥١-٢٦٦.

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٢ ص ١٧٧ ، وفى العقائد الإسلامية لابن باديس ص ٧١-٧٦

و – الإعتناء بالنفس والبدن :

لأن السعادة عند ابن باديس تقوم على أربعة أسس رئيسية أولها صلاح الإنسان لنفسه ، ثم الترقى لدرجات الكمال الخلقى ، ثم المداومة على أعمال الخير والبعد عن الشر ، ثم تذوق النفس لقيم الحسن والجمال الأدبى والمادى . وإصلاح النفس عند ابن باديس يتطلب التوبة والرجوع عن الذنب والإقلاع عنه ، لأن التوبة مفتاح طريق الرجوع إلى الله وهى أول خطوة فى إصلاح النفوس البشرية ، لقوله تعالى : " قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها "(١)

فدواء النفوس بالتوبة ، أما إصلاح البدن بمعالجته بالحمية ، أى بالاعتدال والمحافظة فى الطعام والشراب وبالصوم أحيانا والدواء . وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر ، وإفساد النفس بمقارفة المعاصى .. غير أن الإعتناء بالنفوس أهم وألزم لأن خطرها أكبر وأعظم .(٢)

ويشير ابن باديس إلى الإرتباط الوثيق بين النفس والبدن ليؤكد على أن إصلاح الإنسان وسعادته متوقف على إصلاح بدنه ونفسه فيقول : " وللنفس إرتباط بالبدن كله والقلب عضو رئيسى فى البدن ومبعث دورته الدموية ، وعلى قيامه بوظيفته تتوقف صلاحية البدن لإرتباط النفس به ، فكان حقيقياً لأن يعبر به عن النفس عن طريق المجاز . وصلاح القلب بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة وبصحة العلم وصحة الإرادة . فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الأعضاء كلها فى الأعمال المستقيمة ، وإذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح

---

(١) الشمس : ٩-١٠

(٢) ابن باديس : التفسير ص ١٠٥-١٠٦

على غير وجه السداد ". (١)

كما يشير إلى الإرتباط الوثيق بين صلاح الإنسان وسلوكه ، وأن إصلاح النفس هو أساس كل إصلاح وسعادة وكمال ، فالصالحون هم الذين صلحت أنفسهم وبالتالى صلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، وهذا يعنى أن الأعمال هى ميزان الحكم على الصلاح ، فكما أننا نستدل على وجود النفس وإرتباطها بالبدن بظهور أعمالها فى البدن ، وكذلك نستدل على إتصافها بالصلاح وضده بما نشاهد من أعمالها ، حتى أن العباد يتفاوتون فى درجات الصلاح على حسب تفاوتهم فى الأعمال .(٢)

وهذا كله دليل على أن العناية بالنفس والبدن وما ينتج عنهما من أعمال سبيل ترقى الإنسان فى سلم السعادة والكمال . والدليل عند ابن باديس على أن صلاح النفس إنما هو صلاح للفرد ، وصلاح الفرد هو صلاح للمجموع هو : أن العناية الإلهية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس إما مباشرة وإما بواسطة ، فما من شيء مما شرعه الله لعباده من الحق والعدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح وما من شيء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلا وهو عائد عليها بالفساد ، فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع .(٣)

---

(١) راجع تفسير ابن باديس للحديث النبوى : ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب . وتفسيره يشير الى جواز إطلاق النفس على القلب .

(٢) ابن باديس : التفسير ص ١٠٩ - ١١١

(٣) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٢ ص ٣٢ / وفى الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة ص٢٢٠-٢٢٤

رابعاً : السعادة والخير الأقصى :

السعادة عند ابن باديس غاية قصوى تكمن فى ترقى الإنسان بنفسه إلى درجات الكمال الخلقى ، وهذه السعادة باطنة فى الحياة نفسها لأنها لاتدرك إلا بادراك الحياة ومعناها وفعل الخير والسعى إليه . وهذه السعادة غاية كل إنسان فإذا حصلت له لا يسعى إلى غاية أخرى لأنها غاية وخير .

فالسعادة إذن إدراك وسعى ، أى علم وعمل ، فلا يوجد علم أو عمل إلا وكانت الغاية منه تحقيق خير ما ، ومن ثم فالسعادة كامنة فى الخير الأقصى لأننا نرغب فيها لذاتها وليس لأنها وسيلة لشىء آخر.(١)

ولأن السعادة ترتبط بأفعال الخير ورغبة النفس إلى الكمال والخير ، فكثيراً ما يتحدث ابن باديس عن النفس الخيرة وطبيعة النفس الذكية بوصفها أحد الأرواح النورانية الطاهرة التى ترى لذتها الحقيقية فى عالمها العالى فى الرفيق الأعلى وفى معاشرة أمثالها من النفوس الطيبة الذكية ، ولذا فهى دائمة الشوق إليه والإقتراب نحوه ، ولهذا كان من دعوات الأنبياء الدخول فى الصالحين واللحوق بهم .

إن النفس الخيرة الساعية الى السعادة هى الداعية إلى الإحسان بوصفه واجب دينى وشعور إنسانى ، إنها النفس المتصفة بالقدرة والحرية والرغبة فى العلو، لأن النفوس عندما تشعر بحريتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة إلى نيل المطلوب ، وهو السعادة بلا شك . وبما أن النفس الإنسانية إرادة ونزوع ، فإن النفس الخيرة تكون قوة ونزوع نحو المحبة والإيثار والشوق والأمن ، أما

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره ، ص ١٧٧ - ١٨٠ ، وفى الشهاب عدد ديسمبر ١٩٣٦ جـ١ م١٢

* يمكن مقارنة آراء ابن باديس هذه بما قاله أفلاطون فى نظرية المثل ، وماقاله أرسطو فى السعادة والخير الأقصى - راجع الرسالة الأصلية ص ٢٠٠ -٢١٢

النفوس الشريرة فتكون على العكس فهى تنزع نحو الاستبداد والبغضاء والعداوة والخوف وكل ما يفسد الأخلاق ويسوق إلى الحقد ويضعف حب الوطن ويفسد المجتمع ، ويضعف الأسرة ... ولهذا فإن النفس فى حاجة إلى التربية والتهذيب والتوجيه والتنشيط الذى هو مبعث الرجاء فى النفوس وإحيائها .(١) وهكذا يتوقف الإصلاح الأخلاقى عموما وتحقيق السعادة على إصلاح النفس والعقل والبدن والروح .(٢)

والنفس الراغبة فى السعادة والخير الأقصى لابد أن تتمثل أخلاق القرآن فى الصدق وعمل الخير والبعد عن الكذب وأعمال الشر ، وهذه الأخلاق تكتسب بالعادة أو ما يسميه ابن باديس بالتربية حين يقول : إن تكرار العمل بمقتضى خلق من الأخلاق يقويه ويثبته ، وأن العمل على مقتضى ضده يضعفه ويزيله ، وعلى هذا يكون التساهل فى الأعمال السيئة ولو كانت طفيفة يفضى بنا إلى إستقصاء داء الرذيلة ، وأن القيام بالأعمال الحسنة ولو كانت طفيفة يبلغ بنا إلى رسوخ الخير والفضيلة .(٣) .. ولهذا طلب ابن باديس من راغبى السعادة والخير ان يمرنوا أنفسهم على التضحية فى كل وقت وفى سبيل الخير العام بما يستطيعون ولو ببذل القليل حتى تصير التضحية وأعمال الخير خلقا فيهم فى كل حين . كما ألزمهم بضرورة التمييز بين الخير والشر وأنواع كل منهم لأن الخير درجات وأنواع والشر كذلك .(٤)

والنفس الخيره عنده هى التى تدرك الجمال والحسن ، والسعادة قد تكون فى إدراك الحسن والجميل لما فى ذلك من إتصال بذات الإنسان وحالته النفسيه ..

---

(١) ابن باديس : التفسير ص ١٠٩-١١١

(٢) محمد الميلى : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٥٥

(٣) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٢ ص ٢٨٣-٢٨٥

(٤) ابن باديس : التفسير فى مجالس التذكير ص ٤٥٣-٤٨٣

والإنسان عند ابن باديس لديه ملكة التذوق الفنى التى تعينه على التمييز بين الخير والشر ويحكم بالحسن والقبح ، ومن ثم فالسعادة قد تكون فى تأمل الجمال وتذوقه سواء فى الطبيعة أو فى النفس .

وربما يكون ذلك ما دفع ابن باديس إلى الحديث عن الفن والفنان والتذوق الجمالى وحرصه على تفسير الآيات القرآنية التى تصف الجمال الكونى والإنسانى وتدعو الإنسان إلى التأمل وإدراك الحسن فى الأشياء . حتى أنه يدعو صراحة رجال الأخلاق ودعاة الإصلاح إلى تبنى دعوة إدراك الجمال الموجود فى الكون ليصوره ويحتفظ به فى ذاكرته ، وبعد التأمل الجيد له يقوم بما قام به الفنان بالدعوة إلى الجمال والتحبيب فيه فى نطاق الفضيلة والعفاف ، وأن يعتمد الفن الأدبى على الوصف الجمالى البعيد عن إثارة الشهوة الهمجية ، وأن يكون دور الفنان والإنسان تصوير محاسن الأشياء التى تلذ النفوس البشرية صورها الجمالية وتنمى فيه قوة الشعور والتذوق.(١)

ومن أجل إصلاح الخلق والإنسان كان إهتمام ابن باديس بالآيات القرآنية العديدة التى تحث الإنسان على تذوق القيم وفى مقدمتها الفن والجمال مؤكداً على أن الاسلام هو دين الحياة والعلم والفن ، وأن الحياة ما هى إلا قوة وإيمان وجمال ، وأن العلم يمثل القوة ، وأن الفن يمثل الجمال ، ولولا ذلك لما استخدم القرآن الصور الجمالية فى الدعوة الى الهداية مبينا تأثيرها القوى فى النفوس بإصلاحها .(٢)

---

(١) ابن باديس : من هدى النبوة ص ١٥٥ ، وفى آثار ابن باديس : جـ٣ ص ١٦٦

(٢) راجع تفسير ابن باديس لقوله تعالى : " وصوركم فأحسن صوركم " وسورة غافر من الآية ٦٤ ، سورة التغابن آية ٣ . وقوله تعالى : " هو الله الخالق البارئ المصور ". الحشر: ٢٤. وقوله تعالى : " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ". الصافات ٦

ويشير ابن باديس إلى العلاقة الوثيقة بين سعادة الإنسان وتذوق الفن والإعجاب بالجمال ، ويؤكد على ضرورة أن يكون الفن من أجل المجتمع ولمصلحة الإنسان وتهذيب الخلق وخاصة عندما يثير فى النفس الإعجاب بالجمال، كما يؤكد أيضا على عنصر الخير الموجود فى القيم الجمالية بقوله : إن من قصد فى الفن غير الجمال فليس بفنان ، والشيء اذا صار نافعاً لم يبق جميلاً ، لأن الفن قيمة عليا سامية وتجرد عن كل مصلحة ذاتية ، وهو فى الحقيقة إبداع ينبعث من الطاقة الروحية للفرد ، ومن هنا ينتج الإحساس باللذة والسعادة عن ذلك الترابط بين الفن والجمال والحياة ، لأن اللذة والسعادة تنتج بسبب ما يدخلاه من بهجة وإنشراح وصفاء على الإنسان ، وإذا لم يحط الجمال بالسياج الخلقى يصبح فتنة ، وكان العالم بما فيه من ماء وأرض وأزواج ولذائذ ومظاهر جمالية مجرد فتنة للإنسان .(١)

خامساً : مقامات الكمال الإنسانى :

لقد إرتبطت السعادة عند ابن باديس بترقى الإنسان فى درجات الكمال ، وقد حدد لنا ثلاث مقامات كبرى للكمال الإنسانى ، وهى فى عمومها تعتمد على التعلم والتربية والإقتداء . وهذه المقامات على ترتيبها وعلو قدرها هى : مقام النبوة ، ثم مقام الأولياء والصالحين ثم مقام الصدق واليقين .

(١) مقام النبوة :

وهو مقام رفيع لأنه مقام السعداء من الأنبياء الذين بلغوا درجات عالية من الكمال والصفاء ، وفى مقدمتهم النبى ﷺ ، الذى بلغ أكمل درجات الخلق البشرى .

---

(١) راجع مقال الدكتور عمار الطالبى فى مجلة الأصالة العدد ٧ عام ١٩٧٢ . ص ٥٢-٥٣ بعنوان : النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس .

ويرى ابن باديس أن هذا المقام يصل إليه صاحبه بعد مروره بأربع مراحل من التربية والتهذيب ، إبتداء من درجة العبودية والحمد لله ، ثم كمال الخلق فى الصفات والأفعال ، ثم العلم التام بكمالات الله وإنعاماته ، ثم الفطرة على الإيمان والعلم والكمال .

ولم يقصر ابن باديس هذا المقام على الأنبياء والرسل فقط بل رأى أن الصالحين من البشر يمكن أن يتأسوا بالخلق النبوى بسعياً للوصول إلى هذا المقام بوصفه مقام الكمال والسعادة ، وأن هذا التأسى سبيل للنجاة ، وسبيل لخلاص البشرية مما فيها من إنحطاط ، وسبيل تطهير عقيدتنا من الزيغ والفساد ، ويبعث عقولنا على النظر والتفكير ، ويدفعنا إلى كل عمل صالح ويربط وحدتنا برباط الأخوة واليقين .

ويصف ابن باديس حالة الإنسان قبل الدخول فى هذا المقام والوصول إلى هذه الدرجة العالية من الكمال ، ومحاولته التغلب على النفس الشريرة فيه التى تأمره بالسوء وتبعده عن الخير والسعادة فيقول : " العبد بين داعيين مختلفين ، دينه يدعوه إلى الحسنى وينهض به للعلا ، ونفسه تدعوه إلى السوء وتنحط به إلى الحضيض ، ولا ينحط المسلم عن مقامات الكمال إلا باجابته داعى نفسه وإعراضه عن داعى دينه ، فالنفس هى الجاذب القوى إلى درجات الإنحطاط ، وأحاديث النبى ﷺ كثيرة فى الإشارة إلى أن النفس هى المعرقلة للعبد عن الصعود فى سلم السعادة ، وأنه اذا قهرها وغلبها فقد تيسرت له أسباب الكمال .(١)

(٢) مقام الأولياء والصالحين :

وهو مقام يأتى بعد مقام الأنبياء والرسل ، وهو للأولياء والصالحين الذين بلغوا درجة عالية من الكمال والصفاء والإخلاص ، والمثال عليه أوائل رجال

---

(١) ابن باديس : من هدى النبوة ص ٢٠٢ - ٢٣١

السلف والمتصوفة الأوائل الذين يأتون فى مقام الكمال بعد مقام النبى ﷺ وذلك لكمال إتباعهم له . ولأن الأولياء هم أفضل المؤمنين الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فيكون التشريف لهم فى هذا المقام بقدر حظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله .

ويضيف ابن باديس إلى الواصلين لهذا المقام بعض المتصوفة الذين بلغوا درجة علية من الولاية والصلاح لأنهم تحلوّا فى سلوكهم بمقام الخلق النبوى وامتثالهم لمقام العبودية والحمد . وهو يصف الوصول إلى هذا المقام بقوله : والوصول إلى هذا المقام له معنى ومطلب : فالمعنى أن هؤلاء هم أكمل الناس خلقا وسيرة ، وأن الله قد أتاهم من العلم وقوة الأدراك ووضوح البيان ما يمكنهم من الوصول إلى هذا المقام . فأولئك فى مقام عال من الكمال لأنهم من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . أما المطلب فعلى هؤلاء تقع مسئولية الدعوة والتبليغ ونشر الوعى والهداية بالحجج والبراهين والأدلة العقلية الجلية ، لأن ذلك من مقتضى ما نطالب به من التأسى والإقتداء به ﷺ ولقوله تعالى : قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعنى .(١) فجعل من إتبعه داعيا معه إلى الله على بصيرة ، ولقد عرف السلف هذا فكانوا دعاة إلى الله بأقوالهم وأعمالهم المطابقة لها حتى إنتشر الإسلام فى أقل من ربع قرن فى المعمورة .(٢)

(٣) مقام الصدق واليقين :

وهو من أعلى المقامات البشرية وأكثرها عمومية ، حيث يشمل كل ما يدعو إلى الله على بصيرة وأقام إيمانه على العلم واليقين والإرادة . إذ على العلم

---

(١) يوسف : ١٠٨

(٢) ابن باديس : من هدى النبوة . ص ١٢٨ . راجع كذلك تفسير ابن باديس للحديث النبوى فى فضل السجود والحث عليه فى كتابه من هدى النبوة وفى آثار ابن باديس جـ٢ ص ٢٨١-٢٨٢

والإرادة والعمل يتوقف الكمال الإنسانى الذى هو أساس الخلق الكريم والسلوك القويم ، والمؤمن الكامل هو من سلمت فطرته وصح إدراكه واتبع القرآن فى عقده وخلقه وعمله ، واستوت خلوته وجلوته وسره وعلنه ، وعبد الله إجبار رحمته خائفاً عذابه ..(١)

ويرى ابن باديس أن الواصل إلى هذا المقام عليه باستعمال النظر فيما بين يديه من الآيات التى يشاهدها ، وما خلق الله فى الأمم التى بلغته أخبارها ، وأن يتبع طريق النبى ﷺ فى جميع صفاته وفى مقدمتها الصدق ، ليكون أحق بالكمال وليكون من المستجيبين لدعوته التى جاءت فى الحديث : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وأن الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .

وفى تفسيره لهذا الحديث يؤكد ابن باديس على علو منزلة الصدق واليقين بوصفه أفضل الأعمال الموصلة للجنة .. حيث يثاب بثواب الصديقين كما يؤكد على أن الصدق يكون فى إلتزام الصراط المستقيم لأنه يلزم صاحبه الجمع بين العلم والعمل وفى الجمع بينهما الحكمة ، وبهما تكون النهضة الإسلامية وبعثها ، حين يلتزم كل داع الصدق ، والداعى الصادق هو الذى يتميز بالتمكن التام لأنه يكون فى مقام رفيع من مقامات الكمال الإنسانى والخلقى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعتمد فى صدقه على الحجة والبرهان ، فلا تجد فى كلامه كذبا ولا تلبيساً أو تناقضا أو إضطراباً .(٢)

---

(١) راجع الرسالة الأصلية ص ٢٠٨-٢١٠

(٢) ابن باديس : من هدى النبوة . ص ٩٠-٩٥ . تحت عنوان : الصدق والكذب وإلى أين يهدى كل واحد منهما .

ويرى ابن باديس أن هذا المقام يمكن الوصول إليه بالتربية حين يتعود المؤمن الصدق ويمارسه ويكون له أثره الإيجابى فى محيطه الأجتماعى ، فهذه التربية هى التى سترفع الإنسان إلى مقام الصدق واليقين ، حين يتحول الصدق كهدف أخلاقى إلى عادة باكتسابه ، إذ به يكون ضبط اللسان فى الجد والهزل ، وعن طريق الإحتراز من الكذب ، والتأكد والتثبت فيما يفعل الإنسان ويروى ، ومن حيث التأسى وخاصة فى العلم والدين ، وأن يتحرى الصدق فى تصوير الحقائق الذى يكون به المطابقة بين عقده وقلبه ونطقه بلسانه وعمله بجوارحه حتى يكون متحريا للصدق بجميع أقسامه .(١)

سادساً : الإصلاح الأخلاقى وحكمة الخير والشر

بدأ ابن باديس الحديث عن دور الخير والشر فى حياة البشر وفائدة التمييز بينهما وبين أنواع كل منهما بتساؤل هو : إذا كان الشر يوجد لحكمة الإبتلاء وما يتبعه من صبر ثم عمل ، فهل يكلف الله عباده بالشر ؟ وما الحكمة من ذلك؟ وأجاب على التساؤل بقوله : إن الشر إذا وجد فلحكمة لأن الله لا يرضى بالشر ولا يكلف به ، وقصارى إبليس أن يزيد الشر ويلبسه بالخير ، فالشر بيد الله خلقة وحكمة لا رضا وتكليفا ، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمراً .(٢)

أما التساؤل الثانى الذى أثاره ابن باديس كان حول مدى الإقتران والتشابه والإتصال بين الخير والشر ، وهل يصعب على الإنسان التمييز بينهما ؟ وأجاب على التساؤل بقوله : إن الصعوبة كامنة فى إقترانهما بالطبيعة البشرية وتشابه طبيعتهما وقدرتهما على الإحاطة بالإنسان من جميع جهاته والتأثير على حياته ، لأن كليهما مرتبط بالقضاء والقدر .

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٢ ص ٢٨٣-٢٨٥ ، جـ٣ ص ٢٤-٢٥

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٢ ص ١٠٤-١٢٠

وفى ابن باديس الزعيم الروحى ص ١١١-١١٢

وحاول ابن باديس بيان مدى الإرتباط بين الإصلاح الأخلاقى للإنسان وبين إدراك الحكمة من الخير والشر ، ومدى إرتباط الخير بالشر وما فى ذلك من حكمة وفائدة للإنسان . فجاء فى تفسيره :

* **الحكمة الأولى :**

إن من قدرة الله ومن سننه العامة فى هذا العالم الإنسانى أن وجود الخير والشر لحكمة الإبتلاء والتمييز والإختيار بين النافع والضار ، والحكمة من ذلك هى ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز .

* **والحكمة الثانية :**

المستفادة من إرتباط الخير بالشر هى تمرين الإنسان فى حياته العملية وتدريب فكره على الإختيار والإنتفاع والتمييز بين النافع والضار ، ثم سوق الجوارح إلى العمل على ذلك الترتيب بترويضها عليه .

* **والحكمة الثالثة :**

هى تدريب الإنسان على مواجهة الشر بالمزيد من أفعال الخير ، وهذا مادفع ابن باديس إلى ترديد العديد من الأمارات الداعية إلى الحب والود وأفعال الخير فكان يقول : إن الحب لا يوضع فى الأرض حتى يوضع فى السماء . للإشارة إلى أن الخير والشر موجودان فى الإنسان والعالم وأن أنوار الحق والخير والهدى هى التى تنفى ظلمات الشر والضلال والباطل.(١)

---

(١) يمكن مقارنة آراء ابن باديس هذه بما قاله الفارابى من قبل حول إرتباط الخير والشر بالقضاء والقدر. وما قاله الغزالى فى الإحياء الجزء الثانى .

راجع تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير ص ٤٥٣-٤٨٣

* والحكمة الرابعة :

هى فى إرتباط الخير بالصدق ، والشر بالكذب وأن حكمة ذلك الإرتباط أن محلهما واحد وهو القلب وأن طريق سلوكهما واحد وهو اللسان والجوارح .

ولذا فالحق والكمال فى الصدق ، والباطل والنقص فى الكذب .

* والحكمة الخامسة :

هى فى تنامى الأخلاق بالتطبيق المستمر لأعمال الخير والفهم الواعى لحقيقة الخير وكيفية التحقق منه وفائدته ، لأن من عرف أصل الخير وفروعه عرف أصل التهذيب وتزكية النفوس وعلاج أدوائها .

* والحكمة السادسة :

من إرتباط الخير بالشر فى الإنسان هى فى الإبتلاء الذى يكسب الفرد القوة والجلد ، لأن الشر الالهى أو الطبيعى من دفع الله ويكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بسبب الحكمة ولا تخلو كلها من دفاع ، فإن ما يصيب المؤمنين فى أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ويقوى فيهم الصبر والثبات، وينبههم إلى مواطن الضعف منهم أو ناحية التقصير فيهم ، فيتداركون أمرهم بالإصلاح والمتاب ، فإذا هم بعد ذلك الإبتلاء أصلب عوداً وأطهر قلوباً وأكثر خبرة وأنفع جانباً . وأن صبر الصابر منهم وقد نزل به البلاء الذى لا يقدر على دفعه والظلم الذى لا يقدر على إزالته لبعثا للقوة فى نفس غيره ممن يأنس به ضعفا فى قلب ظالمه وفى قلبهما دفع من الله للمؤمنين .

* والحكمة السابعة :

وهى فى تحقيق الهداية والوصول إلى مرحلة الكمال ، والحكمة من ذلك هو وجود القدرة على التمييز بين الخير والشر ، فمن إتجه نحو الخير ترقى فى

مدارجه إلى الخير الأقصى والكمال إلى درجة مقام الأنبياء وتحقق الهداية يأتى بتأييد من الله وعونه الذى يعصم صاحبه من الشر ويصف ابن باديس ذلك فيقول: إن الدين أحد وسائل التعريف المباشرة بالقوانين الثابتة للخير والشر وحقيقتهما ، فالخير مانفع والشر ما ضر . ومع هذا فالإنسان وإن أوتى قوة التمييز بالعقل بين الخير والشر فإنه لم يؤت قوة الإعتصام والإبتلاء ، وترى المخذول الذى يأتى الشر عامداً وهو يعلم أنه شر وأما الموفق فيواقع الشر فى مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز .

ومن هنا كان الشر عيباً وقبيحاً من الإنسان لأنه قادر بطريقته على تميزه وتجنبه ، بل هو مكلف بذلك ، أى مكلف بفعل الخيرات وتجنب الشرور والآثام ، وهذا العالم الإنسانى المكلف هو الذى يتجلى الخير والشر فى أعماله ويتصلان بحياته إتصالاً وثيقاً.(١)

* والحكمة الثامنة :

فى إدراك نسبية الخير والشر وإمكان تغير الخير إلى الشر والعكس ، ويصف ابن باديس تلك الحكمة وفائدتها الأخلاقية بقوله : إن الشر بيد الله خلقه والخير بيد الله خلقه . وقد يكون الشر ذاتيا لا ينفك ، وقد يكون نسبياً باعتبار حالة تعرض وإتجاه تبعد ، وعلى الإنسان أن يعلم أن نعم الله على عباده كثيرة ومنها ما قد ينقلب عليهم شراً وبلاءً بسبب سوء تصرفهم فيها كالمال مثلاً ، والذى أسماه الله خيراً فى القرآن يكسبه صاحبه من الوجوه الشرعية وينفق فى الوجوه المشروعة فيكون خيراً بذاته ويعمل صاحبه ويتصرف فيه بعكس ذلك فيكون شراً لا من ذاته بل من عمل صاحبه .(٢)

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره جـ٢ ص ٢٨٣-٢٩١ . مقال ابن باديس بعنوان الصدق والكذب وأين يهدى كل واحد منهما .
راجع كتاب ابن باديس : من هدى النبوة ، وفى الرسالة الأصلية ص ٢١٥-٢١٨

(٢) ابن باديس : من هدى النبوة . جمع وترتيب محمد صالح رمضان وتوفيق شاهين . ص ٩٣،٩٥ .

* والحكمة التاسعة :

فى ضرورة الحذر من الشرور الخفية وتأثيرها وفيها يرى ابن باديس : أن الشر بأنواعه الثلاثة التى ذكرت فى سورة الفلق ، وهى الفاسق إذا وقب ، والنفاثات فى العقد ، والحاسد إذا حسد ، فإن هذه الشرور الثلاثة تشترك فى الخفاء ، أى أن شرها خفى ، وكل شر يخفى عمله وأثره يعظم خطره فيعسر التوقى منه والإحتياط له ، لأنك تستطيع أن تتقى ما يظهر ، وهذه الشرور النفسانية كالحقد والحسد غالبا ما تنشأ عن العجب وحب الذات وكذلك شرور العجب والاحتقار والكبر والحسد فهى تضر بصاحبها قبل غيره لأن هذا الشر يأكل قلبه ويؤرق جفنه ، وأن الشر الناتج من الحسد ويصيب النفس والبدن هو مرض نفسانى معضل ويعالج بالطب كما جاء فى كتب السنة .(١)

* والحكمة العاشرة :

فى ثبات الخير فى ذاته رغم وجود الشر النسبى العارض ، لأن الشر إما ذاتى مطلق وإما نسبى عارض ، والشر الذاتى المطلق هو الذى لا ينفك عن طبيعة الشىء كالكفر والضلال ويكون فى باب العقيدة والأخلاق ، وجميع الكوارث الطبيعية والرذائل هى من هذا النوع الذاتى المطلق ، أما الشر النسبى العارض فيظهر فى المال ، فالمال فى الأصل نعمة إلهية وقد تقلب شراً بسبب سوء تصرف الإنسان فيه ، فالمال خير فى ذاته عندما يكتسبه الإنسان بالوسائل المشروعة وينفقه فى وجوهه المشروعة قاصداً بذلك وجه الله فى جمعه وإنفاقه ، أما إذا أساء الإنسان كسبه وإنفاقه فإن المال يصبح شراً بسوء الإستخدام دون أن تتغير طبيعته.(٢)

---

(١) راجع : ابن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية - تأليف الدكتور محمود قاسم

(٢) راجع التفسير الباديسى للمعوذتين ، وحديثه عن الشر الذاتى المطلق والشر النسبى العارض ، ابن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية تأليف د. محمود قاسم ص ١١١-١١٢

* **الحكمة الحادية عشر :**

فى ذاتية الحسن والقبح ، وإرتباط الحسن بالخير ، وإرتباط القبح بالشر فى باب الفضائل ، وفيها يؤكد ابن باديس أن هناك نوعين من الحسن والقبح أحدهما ذاتى مطلق يدرك بالعقل والآخر يحتاج العقل فى إدراكه إلى عون الشرع ، ومن الحسن الإتيان بما هو حسن ، وما الحسن فى الشرع إلا نوع من الإحسان وهو الإتيان بالحسنات ممثلة فى فعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات .(١)

ويرى ابن باديس أن العقل له الدور الأساسى فى عملية التميز والحكم بين الحسن والقبح أو بين الخير والشر ، لأن الفضيلة إنما كانت فضيلة لحسنها وكمالها، والرذيلة إنما كانت رذيلة لقبحها ونقصها ، وأن الإنسان مجبول على محبة الكمال والخير وكراهية النقص والشر ، وأن الحسن بما فيه من جمال وخير هو الفضيلة أما القبح بما فيه من شر فهو الرذيلة والحسن يكون فى الطاعات والقبح يكون فى المعاصى ، وكلاهما مركوز فى العقول . وقد أعطى الله الإنسان قدرة ليميز بها بين القبيح والحسن وبين الرذيلة والفضيلة حتى يسهل عليه إتباع الشرائع التى أوحى بها الله إلى رسوله لدعوة الناس إلى فعل المحاسن وترك القبائح ، إذ يترتب الثواب والعقاب على أختيار الإنسان لما يعلم بعقله أنه حسن أو قبيح .(٢)

وفى تفسير ابن باديس لقوله تعالى : " كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها " .(٣)

---

(١) ابن باديس : التفسير ص ١٣٤ ، ابن باديس : حياته وأثاره حـ٣

(٢) الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية تأليف د. محمود قاسم ص ١٠٨ وما بعدها.

(٣) الإسراء : ٣٨

حاول إثبات مدى ذاتية الحسن والقبح فى الأشياء وأن ذلك لا يتعارض مع القول بأن حسن الطاعات وقبح المعاصى مركوز فى العقول وأنه من حجة الله أنه أعطى للعقل الإنسانى قدرة يميز بها بين القبيح والحسن فى الأشياء ، وقال ابن باديس : إن المحاسن محبوبة لله تعالى ويثيب عليها ويرضى عن فاعلها ، والمقابح مبغوضة لله تعالى نهى عنها ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبيها ، فالله تعالى يأمر بالحسن المحبوب وينهى عن القبح المبغوض .

وليس معنى هذا تأييد آراء بعض رجال الكلام وكذلك الغزالى الذين رأوا أن الحسن لو ورد به نهى لانقلب قبيحاً ، وأن القبح لو جاء به أمر لأصبح حسناً ، فهذا معناه أن الشرع هو الذى يحسن ويقبح وليس هناك معنى لذاتية القبح والحسن فى الأشياء ولهذا كان حرص ابن باديس على تأكيد دور العقل فى التمييز والحكم والمعرفة إلى جانب التأكيد على ذاتية الحسن والقبح فقال : إن أمر الله بالحسن المحبوب ونهيه عن القبح المبغوض فذلك لكى نعلم أن أوامر الشرع ونواهيه هى على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، وأنه تعالى لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن ، فالحسن إذن هو ما كان حسن عند الله والقبيح جد القبيح هو ما كان قبيحا عنده.(١)

---

(١) ابن باديس : العقائد الإسلامية ص ٤٤

* يمكن مقارنة آراء ابن باديس فى مسألة الحسن والقبح الذاتى والعرضى بآراء الغزالى فى الإحياء . وما ذكره القاضى عبد الجبار فى المغنى جـ٦ ، جـ١٣. وما ذكره عضد الدين الإيجى فى المواقف ، والحسين الخياط فى الإنتصار . وما ذكره محمد عبده فى رسالة التوحيد ص ٦٢-٧٢

الفصل الثالث

منهج الإصلاح الإجتماعى

تمهيد :

رأى ابن باديس أن تحقيق الإصلاح الإجتماعى لابد وأن يسير وفق قواعد منهجية تبدأ بالنفس الإنسانية وتنتهى بالأمم والجماعات ، وأكد على أن الإصلاح الإجتماعى لابد أن يتميز بالشمول ومن أجل ذلك وصف مناهج الإصلاح التى إعتمدت على أحد الجوانب الإجتماعية دون الأخرى بالقصور والنقص ، ويقصد بذلك أولئك الذين إعتمدوا فقط على الإصلاح الخلقى أو الإقتصادى أو الفرد دون المجموع .

كما أكد على أن هذه النظرة الجزئية للإصلاح غالباً ما تكون عقبة فى سبيل الإصلاح نفسه ، لأن التعليلات الإجتماعية متشابكة ومتداخلة ولا ترجع إلى عامل واحد ، ومن ثم فالإصلاح الإجتماعى الحقيقى هو الذى يشمل مختلف ميادين التوجيه الأخلاقى والإجتماعى والثقافى والإقتصادى والسياسى معاً.

وعلى ذلك فإن الإنصراف إلى إصلاح ناحية واحدة من هذه النواحى لا يؤدى إلى نتيجة فعّالة بل يؤدى إلى الهدم والتخريب ، والمثل على هذا أن الإصلاح الإقتصادى دون تكوين الضمير الخلقى يؤدى إلى كوارث .(١)

ومنهجية الإصلاح والتحقيق عند ابن باديس تستلزم مجموعة من القواعد فى جملتها يمكن تقسيمها إلى قسمين : الأول يشمل قواعد تحقيق المنهج ، والقسم الثانى يشمل عناصر الترابط الاجتماعى ووسائل تحقيق الوعى الإجتماعى ، والتى إستلهمها ابن باديس من دعوة القرآن والحديث إلى الإهتمام بالعلاقات الإنسانية

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره جـ١ ص ١٠٠ وفى جـ٢ ص ٢٣٢

والترابط الإجتماعى القائم على الأخوة والتعاون والمحبة والإيثار وغيرها ، كما فى الحديث : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا إشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر .

فيقول عند تفسيره للحديث : إنه ينبه على معنى عظيم فى إرتباط كل فرد بأمه إرتباط الجزء بكله ، وهذا الإرتباط يقتضى أموراً كثيرة مما ينبه عليها الحديث وفى مقدمتها : أن الفرد منظور إليه فى النظر الإجتماعى العام بما ينظر به إلى أمته سواء أساواها فى المستوى الذى هو فيه من رقى وانحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى فقيمته فى النظر الإجتماعى العام هو قيمتها .(١)

أولاً : قواعد تحقيق الإصلاح الإجتماعى :

١- العناية بالنفس الإنسانية بفهمها ودراستها وتطهيرها :

فتلك هى الخطوة الأولى لتحقيق الإصلاح الإجتماعى ، لأنه إذا صلحت النفس صلح الفرد وإذا صلح الفرد صلح المجتمع . لذا لزم تطهير النفس من آثار الإنحطاط والضعف ليتولد لدى الإنسان الثقة بنفسه والإعتماد على النفس الصالحة التى تطهرت ووصلت إلى مرحلة النقاء والصفاء .(٢)

والعناية بالنفس الإنسانية عند ابن باديس هو عناية الإنسان كشخصية متكاملة فكراً وعقلاً وجسماً وسلوكا فى منظومة التفاعل والتكامل ، ذلك التكامل الذى لا يؤتى ثماره إلا بمراعاة ظروف الفرد وفهم حقيقة دوافعه ومصالحه، ثم أداء كل فرد لواجبه مع عدم إهمال المصلحة الشخصية ، ويصف

---

(١) راجع مقال ابن باديس : قيمة الرجل بقيمة قومه . مجلة الشهاب . عدد عام ١٩٣٥، وفى : ابن باديس : حياته وآثاره ج٢ ص ٢٢٩/٢٣٠. وفى ابن باديس وعروبة الجزائر: محمد الميلى ص٤٧

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٢ ص ٢٢٩/٢٣٠ ، من مقال ابن باديس : قيمة الرجل بقيمة قومه . نشر بالشهاب سنة ١٩٣٥.

ابن باديس الأثر الإيجابى لهذه العناية بقوله : لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه عقلاً وروحاً وبدنا لازمة له ليكون ذا أثر نافع فى الناس على منازلهم منه فى القرب أو البعد ، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر ، فلا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملاً مشتتا لا يهديه علم ولا يمتنه خلق ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه - وإنما ينفع المجتمع الإنسانى ويؤثر فى سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله ، فأخذ الأصول الثابتة من الماضى وأصلح من شأنه فى الحال ومد يده لبناء المستقبل ، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه ، معرضا عما لا حاجة له به ، أو ما لايناسب شكل بنائه الذى وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته.(١)

ويعلل ابن باديس أهمية فهم نفسية الفرد كضرورة لتحقيق الإصلاح الإجتماعى وأهمية إستخدام علم النفس فى تفسير الفروق الفردية والإجتماعية، وأن ذلك مما يساعد المصلح الإجتماعى ورجل التربية فى أداء مهمته فيقول : إن من أعظم العبر ما نشاهده فى أحوال الخلق أمما وجماعات وأفراداً ، من الإختلاف الشديد . فقد إختلفت بواطنهم النفسية كما إختلفت ظواهرهم الجسدية ، وإنك كما تجد أبناء الأمة الواحدة يتشابهون فى تركيب أجسامهم ، ثم لابد من فرق تتمايز بها شخصياتهم ، ويتبع هذا الإختلاف إختلافهم فى إدراكهم وتميزهم فى أخلاقهم وعاداتهم وفى ضلالهم وهداهم ، وفى درجات الهدى ودركات الضلال. ومع ذلك فقد مكنهم الله تعالى جميعهم دون إختلاف من الأسباب وإدراك العقل وحرية الإرادة ثم فضل بينهم هذا التفضيل ، فكان منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر والشقى والسعيد ، إلى تقسيم كثير . وفقه أسباب هذا

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٤ ص ١٧

التفضيل هدفنا ، وهو فقه الحياة والعمران والإجتماع فلابد من النظر فى أحوال التفضيل فى الدنيا والآخرة ، فأهل النار متفاوتون فى دركاتها وأهل الجنة متفاوتون فى درجاتهم .(١)

وهكذا يحدد ابن باديس أهمية فهم الدوافع والفروق الفردية والقدرات الإنسانية والتى على أساسها يتعامل المصلح ورجل التربية وينجح فى مهمته ، ويؤكد هذا بقوله : إن التربية علم وفن وهما جناحى علم المنطق ، فالتربية هى تطبيق لنظريات علم النفس ، كما أن الزراعة تطبيق لعلم النبات ، فالعالم والمصلح محتاج إلى معرفة نفسية المتعلمين وفهمها والتنزل لهم والأخذ بأفهامهم إلى الهدف الذى يرمى إليه حسب درجاتهم واستعدادهم .(٢)

٢- الإهتمام بمقومات الحضارة الأساسية فى العلم والعمران والإجتماع والسياسية :

ويحدد ابن باديس هذه المقومات وهى الجنس واللغة والدين والتاريخ ، والتى بها تكتسب الأمم والأفراد الإحترام فى أعين غيرها ، ويؤكد هذه الأهمية بقوله : إن الأمة التى لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم ولا ينظر إليها إلا بعين الإحتقار ، مع القضاء عليها فى ميادين الحياة بالتقهقر والإنحدار .. والإلتزام بهذه المقومات وتطبيقها يتطلب الأخذ بالسنن القولية والفعلية وفهم التفاسير والأحاديث النبوية ، والإلتزام بممارسة الأدب النبوى العام ، لأن الله تعالى فضلنا بالعقل وكملنا بالعلم وجملنا بالفضيلة وأسعدنا بالهداية والتوفيق .. كما يتطلب الإهتمام بالمفهوم الإنسانى العام فى كماله

---

(١) راجع تفسير ابن باديس لقوله تعالى : " أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً " . الإسراء ١٧-٢١

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ٢١٢-٢١٣ .

وأخلاقه وعقلانيته ، لأن هذا المفهوم كما يقول ابن باديس : هو الذى أثمر للإنسانية فوائد كبرى ، فبه عرفت الإنسانية وذاقت حرية العقول والرقاب ، ومنه عرفت وذاقت العدل على أتم معناه ، ومنه ذاقت وعرفت المساواة بين العباد فيما هم متساوون فيه .. فلزم الإهتمام بالإنسان ومبادئ الإسلام ، لأن الإسلام عقد إجتماعى عام وفيه كل ما يحتاج إليه الإنسان فى جميع نواحى حياته لسعادته ورقيه ، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام ، فالمسلم الفقيه فى الإسلام غنى به عن كل مذهب من مذاهب الحياة ، والإسلام بما فيه من إيمان هو أبو المدنية أمس واليوم ، فمدنية اليوم مدنية من جهة العلم والعمران لا من جهة الأخلاق والإجتماع .(١)

٣- العناية بتحصيل العلم :

فذلك عند ابن باديس هو سبيل إنقاذ الأمة والسير فى موكب المدنية الحقة بين الأمم ، وفى نفس الوقت هو سبيل خدمة النفس والإنسانية وسبيل إنهاض الأمة الإسلامية . وتحقيق ذلك عنده يتطلب :

أ - أخذ العلم عن كل أمة وبأى لسان ، وإقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد الى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام .

ب- ضرورة الإهتمام بوسائل العلم وفى مقدمتها اللغة والتعليم والمعلم والمتعلم ومكان العلم ، وفى هذا الإطار سعى ابن باديس لإنشاء المدارس ووضع المناهج والإهتمام بمجانية التعليم ، والإهتمام بالتعليم العام ، فذلك هو سبيل الثورة على الأمية فى جميع صورها : لأن التخلف وتدهور المجتمعات ما هو إلا نتيجة الجهل ، وعلاج ذلك بالتعليم وكثرة المتعلمين التى تبعث على التفاؤل .

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٣ ص ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥

جـ- ضرورة بث الرغبة فى التعليم وحب العلم بفروعه الدينية والدنيوية وبيان فضائله ، وحث المسئولين على مجانية التعليم ، وجمع التبرعات للصرف على المتعلمين من جميع أنحاء الجزائر . لأن التعليم حق للجميع وهذا هو البعد الإجتماعى للعلم والتعليم .

د - ضرورة تربية النشىء على فكر صحيح ولغة قومية ولو مع علم قليل كمرحلة أولى وأساسية ، ثم ضرورة الفصل فى المراحل الأولى بين التعليم والسياسة ، خوفا من التوجهات السياسية الخاطئة (فى ذلك الوقت) مع التوسع فى التعليم العام بجميع مراحله وتوفير المدارس اللازمة .

وبالفعل إستطاع ابن باديس ورفاقه من جميع العلماء المسلمين وفى مقدمتهم الشيخ البشير الإبراهيمى ، والشيخ التبس والعقبى من تحقيق هذه الخطوات وإنشاء ما يزيد على ثلاثمائة مدرسة فى ذلك الوقت رغم قوانين الإضطهاد للعلم والتعليم آنذاك .(١)

٤- الإلتزام بالفضائل وتصحيح العقائد :

وتطبيق هذه الخطوة عند ابن باديس يتطلب ضرورة الإلتزام بعقائد الإسلام وأصوله القائمة على العلم ، والإلتزام بفضائله المبنية على القوة والرحمة ، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان ، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات . كما يتطلب التآلف والتكامل والتعاون ، وكلها من الفضائل الإجتماعية التى تدعو إليها جميع العقائد ..

ويوضح ابن باديس الآثار الإيجابية لهذا الإلتزام بقوله :

---

(١) راجع : ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ وفى كتاب : الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا . تأليف أنور الجندى ص ٤٢ - ١٣٤.

" إن النهضة التى تؤسس على الدين أركانها تكون سلاماً على البشرية إذ على هذه النهضة يترتب عليها نهضة إقتصادية وصناعية " . ويقول أيضا " إن الإصلاح الإجتماعى لا يتحقق إلا بعقيدة دينية واضحة ، وأن المسلمين اليوم يعانون التخلف لخروجهم عن عقائد الإسلام وفضائله وأعماله ونظمه ، وكانوا بخروجهم هذا فى حالة فساد ، فلابد من إصلاحهم بإرجاعهم إلى ماخرجوا عنه".(١)

ولأن فى تطبيق هذه القاعدة علاج للعديد من مشاكل الفرد والمجتمع ، حرص ابن باديس على بيان أهمية الإيمان فى بناء عقل وفكر الإنسان فيقول : إن العقيدة تدعو إلى العلم وحرية العقل والتفكير ، ولهذا يعتز الإنسان بعقيدته ، وكذلك يعتز بكرامته ويأخذ بالأسباب ، فالإيمان إلى جانب أنه رابطة إجتماعية بين البشر فهو مصدر كل خير لأنه يتضمن جميع الفضائل ويدعو إلى الإلتزام بها ، وفى مقدمتها العدالة والوفاء والأمانة والتسامح والعفو والمساواة بين الناس جميعاً فى الحقوق والواجبات العامة .. والإيمان قد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس بما فيه علاج لأمراض المجتمع الإنسانى ، – ومن ثم – ففى القرآن صلاح العقائد والأخلاق والأعمال ، والدين هو دين الحياة والعلم والفن . الحياة التى تمثل القوة والإيمان والجمال ، والعلم الذى يمثل القوة والفن الذى يمثل الجمال .(٢)

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٣ ص ٥٤٩

(٢) راجع تفسير ابن باديس لسورة الإسراء . آية ١٧ . وفى آثار ابن باديس جـ١ ص ٣٣٠ ، جـ٢ ص ١٤٢

ثانياً : عناصر الترابط الإجتماعى :

(١) **اللغة** : كانت فى مقدمة العناصر والعوامل التى أهتم بها ابن باديس بوصفها أداة التفكير والعنصر الهام فى التكامل والترابط والتفاهم والتعاون بين الأفراد وكذلك الأمم والجماعات . ولهذا كان كفاح ابن باديس لنشر اللغة وإقناع العامة بأهمية تعلمها بمختلف الأدلة الشرعية والعقلية فاستشهد بحديث النبى ﷺ لزيد حين قال : أمرنى رسول الله أن أتعلم كتاب يهود وقال : " إنى والله ما آمن يهود على كتاب " . وقال زيد فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته ، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم .

واستشهد ابن باديس بهذا الحديث على أهمية تعلم اللغات عموماً كالسريانية والعبرية ، وأن من السنة تعلم اللغات المحتاج إليها لأن تعلمها من المصلحة الإجتماعية ، ويقول فى ذلك : نحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح علينا أن نعرف لغتهم وخطهم كما عليهم أن يعرفوا لغتنا وخطنا ، وكل قوم تربط بينهم المصالح لابد لهم من التعاون ، ولا يتم التعاون إلا بالتفاهم ، والتفاهم بالمشافهة والكتابة ، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض وخطه ، وبقدر ما تكثر الأقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللغات والخطوط ويلزم تعلمها ، لأن العلة هى الحاجة سواء كانت المصلحة التى تربط الأقوام عمرانية أو علمية ، لأن المصلحة من حيث هى مصلحة محتاج إلى تحصيلها .. وإن اللغة والثقافة لن تكونا من عوامل الترابط الإجتماعى إلا إذا فشلت أولاً محاولة فرنسة الشعب الجزائرى وإذابة عروبته وذاتيته القومية .(١)

---

(١) راجع : ابن باديس : من هدى النبوة ، ابن باديس : حياته وآثاره ، جـ١ ص ٩٩ . محاضرة بعنوان : عمل ابن باديس التربوى فى ذكراه عام ١٩٦٦ وفى الجزء الثانى ص ٢٣١ - ٢٣٢

(٢) **الدين** : كنظر وعمل عندما يتحول إلى مبادئ وقيم وأسس للتفاهم والتعاون والترابط ، عندئذ يصبح هو السبيل لإيجاد جماعة مترابطة ومتعاونة قائدة ومفكرة تقود المجتمع .

وقد نجح ابن باديس فى إعداد النشىء على أسس دينية واضحة وثابتة ، وهو يصف هذا النجاح بقوله : إن القرآن هو الذى كون منهم رجالاً كرجال سلفهم ، وأنه على هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفى سبيل تكوينهم تلتقى مجهودنا وجهودها ...

والدين كعنصر للترابط الإجتماعى لا ينفصل عن اللغة والتعليم وفضائل الأخلاق وقواعد السلوك العام . فهو أساس كل مقاومة وقدرة تنمو فى الإنسان لمواجهة نفسه وغيره . ويظهر تصميم ابن باديس على تحقيق ذلك حين يقول : إننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية عزمنا على المقاومة المشروعة ، وسنمضى فى تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا ولن يصدنا عن ذلك شىء فنكون قد شاركنا فى قتلها بأيدينا ، وأننا على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء ، أن النصر سيكون حليفنا ، وإنى أعاهدكم على أن أقضى بياضى على العربية والإسلام كما قضيت سوادى عليها ، وأنها لواجبات وإنى سأقصر حياتى على الإسلام ولغة الإسلام والقرآن وهذا عهدى لكم .(١)

ومن أجل تحقيق الإصلاح الإجتماعى حرص ابن باديس على تدعيم عناصر الوحدة والترابط وفى مقدمتها الإيمان القائم على الفكر والعمل بوصفه السبيل الأمثل للمحافظة على الشخصية الجزائرية ومقوماتها الأساسية وهى اللسان واللغة والدين ، وفى هذا الإطار أكد على :

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ١٢٠-١٢١

أ - أن الإصلاح الإجتماعى يتطلب تحقق الوحدة الوطنية القائمة على وحدة العقيدة ، وأن هذه الوحدة هى سبيل تحقق الإستقرار والحرية وكلّ نهضة حقيقية ويقول فى ذلك : نهضتنا بنيت على الدين أركانها ، فكانت سلاماً على البشرية ، لا يخشاها والله النصرانى لنصرانيته ولا اليهودى ليهوديته ولا المجوس لمجوسيته ، ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته .(١)

ب- أن الإصلاح الإجتماعى ضرورة تقتضيها المصلحة العامة وحاجة الناس فى أمر دنياهم ونظم معيشتهم وضبط شئونهم وتقدم عمرانهم ، وأن هذا الإصلاح مرتبط بالتحولات العالمية ، وأن هذا العالم بوصفه عالم الكون والفساد كل كائن فيه معرض للخروج عن حالته الأصلية وإختلال نظامه وتلك حاة الفساد: وإرجاعه إلى حالته الأصلية فهو الإصلاح .(٢)

جـ- أن السبيل لتحقق الترابط الإجتماعى هو الدعوة بالتى هى أحسن ، فتلك الدعوة ينشأ عنها نوع من الإهتمام بقضية المصلحة العامة ، أما القسوة فلا تستخدم إلا مع المعاندين المستغلين ، ولتحقيق ذلك يجب طرح المطامع الشخصية من أجل الصالح العام ، وأنه عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسى كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة ، ويتحتم التآذر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة باذن الله ثم بقوة الحق وإدراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة .(٣)

---

(١) راجع مقال ابن باديس فى الوحدة الوطنية ، نشر عام ١٩٣٦ . وفى.: ابن باديس وعروبة الجزائر تأليف محمد الميلى ص ٦٥

(٢) ابن باديس : حياته وأثاره جـ٣ ص ٥٤٧

(٣) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٣ ص ١٣٢-١٣٤

د – أن إيجابية الإنسان ونجاحه تتوقف على مدى إجتهاده وإعمال الفكر ومسايرة العصر فى إطار الفهم الحقيقى للدين وإلتزام أحكامه. فالدين عند ابن باديس سواء كان ذاتياً أو وراثياً كان له دوره الفعّال فى الإصلاح والنهضة والمحافظة على الأمة وعناصر كيانها – ودليل ذلك – أن الإسلام الوراثى حفظ على الأمم الضعيفة المتمسكة به شخصيتها ولغتها وشيئا كثيراً من الأخلاق ترجح به ، ومع ذلك فإن هذا الإيمان الوراثى لا يمكن أن ينهض بالأمم ، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها . والإسلام الوراثى مبنى على الجمود والتقليد فلا فكر ولا نظر ومن ثم فهو حجر عثرة فى طريق التقدم . أما حقيقة الإسلام والإيمان فهى فى الإيمان الذاتى ، لأنه إيمان من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسنه فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ويتفقه حسب طاقته فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر فيفرق بين ماهو من الإسلام بحسنه وبرهانه وما ليس منه بقبحه وبطلانه فيحيا حياة فكر وإيمان وعمل .(١)

(٣) **تدعيم الدوافع الإجتماعية الفطرية** نحو الترابط والمحبة وتبادل المصالح والدفاع عن النفس . وقد اهتم ابن باديس بابراز الأثر الإيجابى لهذه الدوافع فى تحقيق الترابط الإجتماعى وتبادل المصالح مع المجموع ، مؤكداً على أن المصلحة هى كل ما اقتضته حاجة الناس فى أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شئونهم وتقدم عمرانهم ، وأن غريزة الدفاع عن النفس فطرية فى جميع الحيوان ، وأن الإنسان إذا أحس بالخطر يعمل أعمالاً من غير وعى ولا يستطيع أن يقوم بها لولا ما أصابه من الخطر ، ومثال ذلك أنه قد يجرى إنسان فاراً أمام حيوان يريد

---

(١) محمد الميلى : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٥٩–٦٠ . مقال ابن باديس بعنوان : الإسلام الذاتى والإسلام الوراثى .

إفتراسه بمقدار من السرعة لا يستطيعه أبداً فى غير تلك الحال ، ومثال آخر أن الإنسان الأعزل الذى لا سلاح معه عندما يرى خصمه مسلحاً ويشاهد الرصاص منطلقا من سلاحه يحس بخطر محقق فتتحرك فيه غريزة الدفاع عن النفس ، فينبعث من غير وعى فينقض على خصمه إنقضاض المستميت فربما قضى عليه رغم سلاحه. هذا فى الفرد من الناس كغريزة فردية ، أما فى المجموع فإن المسألة تكون أروع لأن الجماعة لا تعمل عن عاطفة فإذا خافت على نفسها واندفعت بغريزة الدفاع عن النفس فإنها تأتى فى تلك الحالة بما لا تتصوره العقول .(١)

وهذا يعنى أن الترابط الإجتماعى وكذلك الإصلاح الإجتماعى لا يتحقق عمليا بالعواطف الفردية بل بالوعى الكامل وإثارة الدوافع الفطرية نحو المصلحة والحفاظ على النفس والمجموع ، وأنه عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسى كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة .

(٤) **المشاركة الفعّالة فى البناء الإجتماعى** القائمة على التعاون ، والتعاون عند ابن باديس هو الإرتباط الوثيق والسعى لتحقيق معنى التساوى بين الكل والجزء والكبير والصغير ، وهو أيضا التساوى فى المسئولية والمشاركة العملية من أجل المصلحة القومية ، وهو يتحقق بالفكر الصحيح واللغة القومية المشتركة والترابط بين الجزء والكل .

وقد بيّن ابن باديس أهمية التعاون فى البناء الإجتماعى عند تفسيره لسورة النمل وخاصة موقف سليمان من الهدهد(٢) واستنتج من هذا الموقف عدة مبادئ هامة للترابط الإجتماعى العام منها :

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ٤ ص ٣٨-٤٧

(٢) سورة النمل : ١٩-٢٨

أ - أن الأهتمام بالفرد ضرورى من أجل صالح المجتمع وحفظ نظامه وكيانه وأن الفرد إذا أهمل إصلاحه أصبح عامل ضعف للمجتمع ككل ، حيث أن استهتار الفرد وعدم تقديره للمسئولية يمكن أن يسبب هلاك المجتمع .

ب- أن كل واحد فى قومه وجماعته هو المسئول عنهم من ناحية ما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته ، ولهذا وجب عليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر أو الخلل يقع من جهته ، لأنه إذا قصّر فى ذلك وترك مكانه مثل (الهدهد) فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته ، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم .

جـ- أن أهمية الفرد للمجتمع ضرورة لحفظه وبنائه ، لأن زوال حجر صغير فى السد المقام لصد السيل يفضى إلى خراب السد بتمامه ، ومن ثم فإن إخلال أى أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد إلى الضرر العام وأن ثبات كل واحد فى مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهو أساس القوة.

د - أن الثواب والعقاب ضرورة إجتماعية لحفظ النظام والأمن والحفاظ على المجتمع ، وأن تقدير العقوبة تكون على حسب كبر الذنب أو صغره وما يترتب على ذلك من ضرر أو خطر . فرغم أن الهدهد جرمه صغير بترك مكانه ، وما كلف إلا بما يستطيعه من الوقوف فى مكانه والبقاء فى مركزه ، ولكن جرمه بإخلاله هذا الواجب كان جرما كبيراً لأن الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير ، ولهذا قدرت العقوبة على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته أو مركزه.(١)

ولم يكتف ابن باديس ببيان أهمية الترابط الإجتماعى والعوامل التى تحققه بل سارع إلى وضع الخطط العملية لتحقيقه بالفعل ، فوضع خطة لمواجهة المخطط

---

(١) راجع تفسير ابن باديس ص ٤٤٦ -٤٤٧

الفرنس لضعف الشخصية العربية ومحو اللغة العربية الذى أعلن صراحة فى قانون شوتن عام ١٩٣٨ . والذى اعتبر اللغة العربية فى الجزائر لغة أجنبيه ، كما وضع خطة لمواجهة قوانين الإضطهاد للثقافة العربية والتى إشترطت حفظ القرآن دون تفسيره واستبعدت تاريخ الجزائر والعرب وجغرافيته وأدبه من التدريس فى المدارس الجزائرية .(١)

ثالثاً : الوعى والإصلاح والإجتماعى :

بعيداً عن مقولات الوعى الإجتماعى النظرى والسيطرة الفكرية قدم لنا ابن باديس مفهوما شاملاً للوعى فى مراحل تطوره ووسائل تحققه ، وأسس الوعى الإجتماعى على ركائز ثلاث من الوحدة هى وحدة الأديان والوحدة البشرية ووحدة الأوطان ، وقدم عدة معان للوعى منها :

* **المعنى الأول للوعى عنده** : هو العلم السابق على الفعل ، والنظر القائم على التفكر . لأنه الوسيلة للوقاية والحماية للإنسان من الخطأ والضلال وعلى ذلك فإن من دخل العمل بغير علم أى وعى وإدراك حقيقى لا يأمن على نفسه من الضلال .

* **المعنى الثانى للوعى عنده** : هو روح الفطرة السليمة المغروسة فى قيم الإيمان الفطرية وقوانين العقل الصحيح التى تعين الإنسان على التمييز بين الحسن والقبيح وتعينه على الإصلاح ، لأن الإصلاح هو الشىء الحسن المحبوب للفطرة، والخطأ هو من القبيح المبغوض . والقبائح نهى الله عنها فهى قبيحة لذاتها ، والمحاسن محبوبة لله أمر بها ويثيب عليها ، والقبائح مبغوضة له تعالى نهى عنها ويعاقب عليها . وقد عرّف الله تعالى عباده بأن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب

---

(١) راجع مواقف ابن باديس العملية فى مناهجه الإصلاحية فى هذا المبحث وفى الرسالة الأصلية ص ٢٤٢ -٢٤٥

وأن ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض ، فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هى على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة . وأنه تعالى لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن ، فالحسن تميل إليه النفوس وتنفر من القبيح ، والحسن جد الحسن هو ماكان حسناً عند الله ، والقبيح جد القبيح هو ما كان قبيحا عنده .(١)

* **والمعنى الثالث للوعى عنده** : هو الشعور بالترابط الأخوى الذى يتحول من الإحساس الخاص إلى الإحساس العام الذى لا يفرق بين الأجناس ويدفع الفرد إلى المشاركة مع الجميع فى السراء والضراء حتى يشركهم فيما عنده من خير بقدر المستطاع .

وهذا المعنى هو الذى يشير إلى تحول الوعى الفردى إلى الوعى الجماعى والإنتقال التلقائى من الوعى بالذات إلى الوعى بالآخر والمجتمع .. وهذا ما يؤكده إبن باديس عند وصف الإرتباط الوثيق بين الوعى بالذات والوعى الإجتماعى . فالوعى بالذات يبدأ فى التحقق عندما يسترد الفرد ذاته التى فقدها مجيباً فى صدق على ثلاثة أسئلة هى : من أنا ؟ ولمن أعيش ؟ ولماذا أعيش ؟ وكانت إجابة ابن باديس عليها بقوله : أعيش للإسلام والجزائر . فليس الإسلام وحده دنيا للبشرية ولا الجزائر وحدها وطناً للإنسان ، وللإنسانية كلها حق على كل أحد من أبناء الإنسانية ، ولكل دين من أديانها حقه من الإحترام ، لأن هدف الوعى واحد هو خدمة الإنسانية ونفعها فى جميع شئونها والحدب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها .(٢)

ولأن الوعى الإجتماعى يتطلب الفهم العميق لأنماط السلوك الإجتماعى كما يتطلب الوسائل الفعّالة للتأثير فى هذه الأنماط ، فإنه لا يتحقق ولا يبدأ إلا

---

(١) راجع : ابن باديس : العقائد الإسلامية وفى آثار ابن باديس : جـ١ ص ٢٣٨.

(٢) د. صالح خرفى : صفحات من الجزائر . الشركة الوطنية للتوزيع عام ١٩٧٢.

بعد فهم حقيقة النفس وتطهيرها حتى تتغير وتصبح نفسا صالحة وواعية ومن ثم فإن عناصر الوعى الإجتماعى عند ابن باديس قد تمثلت فى عدة مظاهر منها :

١- الإحساس والإلتزام بمشاعر الأخوة والمحبة والتعاون ، وما يتولد عنه من شعور بالقيمة . فالأخوة عنده مجموعة من العناصر المتآلفة حول محور الحب والتعاون ولها عدة معان يستشعرها ذو الضمير الحى أثناء تفاعله الإجتماعى .

٢- عمومية الدعوة إلى الأخوة الإنسانية وخدمتها فى جميع أجناسها وأديانها والسعى إلى التقريب بين عناصرها ، فى إطار من العدل والتناصف والإحترام وما يتولد عن ذلك من إحساس بالمحبة واللذة التى يسعى كل فرد لإستشعارها كما تعطى شعوراً صادقاً بالثقة والقيمة للنفس ، وأن أعظم لذة يشعر بها ذو الضمير الحى أن تكون له قيمة عند قومه ، فثقة القوم بأخيهم هى التى يسعى إليها من يعرف قيمة نفسه وقيمة قومه ، ومن يعرف قيمة قومه وقيمة نفسه يسعى إلى الأخوة لإستشعار لذاتها ,

٣- الإحساس بالحرية : وهو شعور يظهر كمحرك لمشاعر الإنسان ووجدانه ، لأن الوعى يوقظ الإحساس بالحرية والحق والمساواة ، ويؤكد لصاحبه أو لذاته أن حق الإنسان فى الحرية كحقه فى الحياة ، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية .

والحرية الواعية عند ابن باديس ليست مجرد شعور بل ممارسة عملية ، وهى ليست حقاً فردياً يمارسه الإنسان فى حدود حاجاته الفردية ولكنها حق جماعى وإحساس واع شامل لمظاهر الحرية إبتداء من حرية المعتقد إلى حريته فى ممارسة حقوقه السياسية وحرية المناقشة .(١).

---

(١) راجع نداءات ابن باديس للحرية وفى محمد الميلى : ابن باديس وعروبة الجزائر . ص ٢٥-٢٦

٤- البعد الإنسانى العام القائم على الحب والأخوة والإحترام . لأن الوعى الإجتماعى يوجب التعاطف والتراحم والتضامن الإنسانى العام والتسابق إلى الخيرات ، ومن هنا نرى تأكيد ابن باديس فى نداءاته حين يقول : إنه يحب من يحب الإنسانية ويحترمها ويخدمها ويبغض من يبغضها ويظلمها .. أيها الشعب الجزائرى الكريم ها أنا أمد لك يدى من قلب يحبك فهل تمد يدك لتزيل نقصنا بالكمال ، ونغير جهلنا بالعلم ونمحو تخريفنا بالتفكير ، يدى فى يدك أحببنا أم كرهنا لأن قلبى قلبك وعقلى عقلك وروحى روحك ولسانى لسانك وماضى ماضيك وحاضرى حاضرك ومستقبلى مستقبلك وآلامى آلامك وآمالى آمالك ، إننا شعب من أشد الواجبات علينا الإحتفاظ بما فى الماضى من نفع ومدنية وعدم الزهد فيما فى الحاضر من خير ومدنيات .. إننا طلاب حق باسم العدل والإنسانية.(١) وهكذا يرى ابن باديس ضرورة تحول الوعى الفردى إلى وعى إجتماعى وإلى قانون عملى تحكمه قوانين المصلحة البشرية فى العدالة والحق والإلتزام، وكما يتحول الوعى بالذات إلى وعى بكل الذوات حين يجد فيهم صورته الإنسانية ويشعر وكأن الأرض كلها وطن له ، فيسعى لتحقيق سعادة الإنسان وخيره ونفعه ، فينتقل الخير من الفرد إلى غيره ومن الدائرة الخاصة إلى العامة ، لأن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة دون واسطة فوجب التفكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع .(٢)

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى تفسير ابن باديس لآية الإعتصام بحبل الله . سورة آل عمران ١٠٣ ، وفى ابن باديس حياته وآثاره جـ٣ ص ٥٢٠ ، جـ٤ ص ٨٣ ، ٣١١

(٢) راجع الرسالة الأصلية ص ٢٥١-٢٨٠

رابعاً : الخطوات العملية لتحقيق الوعى والإصلاح الإجتماعى :

رأى ابن باديس أن المدخل لتحقيق الإصلاح الإجتماعى الشامل هو تحقيق الوعى القائم على العلم والفضيلة لكافة طبقات الشعب ، وأن هذا الوعى هو السبيل لإنتشار الأخلاق واستلهام القدوة الصالحة فى كل مجال والمثل الأعلى الأخلاقى لمواجهة نواحى النقص وعلاج المفاسد الإجتماعية ومواجهتها والقضاء عليها وفى مقدمتها الجهل والجمود والخرافة وما يتبعها من مفاسد وتخلف .

ولكى تتعاون القيم الأخلاقية والقيم الدينية المكونة للوعى لتحقيق الإصلاح الإجتماعى المنشود حدد ابن باديس الوسائل والخطوات العملية لتحقيق الوعى والإصلاح الإجتماعى فى :

١- ضرورة الإلتزام بالمبادئ السامية الداعية للخير العام والتى تبعد الإنسان عن المعاصى والشرور ومفاسد الأخلاق والمجتمع كالميسر والبطالة والخمور والفجور ، فتلك المفاسد هى التى تفسد على الناس عقولهم وتضيع أموالهم وتتلف أبدانهم . ويرى ابن باديس أن التنفيذ العملى لهذه الخطوة يمكن تحققه عند الإلتزام بالعلم والفضيلة والبعد عن عوامل الجهل والرذيلة ، ويقول مؤكداً موقفه العملى : لهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل ، وحاربت كل واقف فى طريق العلم والتعليم وكل وجوه السرف وأكل أموال الناس بالباطل. وهذا لن يتأتى إلا فى ظل قانون العدالة الإلهية والإلتزام بالحق ونصرته حيث ما كان ، وبإقامة ميزان العدل فى القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين المعادين والموالين ، إستجابة

لقوله تعالى : " وإذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى "(١)

وقوله تعالى : " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل "(٢)

---

(١) الأنعام : ١٥٢

(٢) النساء : ٥٨

ومن هنا كان من الضرورى الإلتزام بمبادئ العدالة الإجتماعية ومتطلباتها الأساسية وفى مقدمتها معرفة ماهية الصواب والخطأ والحقوق والواجبات ووجوب الوفاء بالعهود والعقود وبر الوالدين وشهادة العدل وأعمال الخير ومن العدالة أيضا وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية والدعوة إلى الإخاء والمساواة بين الأجناس فى المكانة والعمل ، ومن العدالة أيضا حب الخير للناس وللحياة عموماً ، وهو ما يعبر عنه ابن باديس بقوله : إننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبها لغيرنا ، ونكره أن ندخل الضرر على أى كان غيرنا ، كما لا نرضى أن يدخل علينا الضرر ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا لأننا قوم نحب الخير فلا نحرم منه أحد.(١)

٢- ضرورة الإلتزام بالمبادئ التربوية الناجحة ، وتحقيق هذه الخطوة عمليا يتطلب أن توصف هذه المبادئ بالعمومية والشمول ليتولد عنها الشعور بالإنتماء والإهتمام المشترك والحرص على تكامل الشخصية ، كما يتطلب إنتشار العلم والتعليم وبناء المؤسسات التربوية ، وأن يكون الإطار العام لهذه التربية هو الأسلوب النبوى السلفى وفق منهج التدرج من الخاص إلى العام ومن الجزء إلى الكل ومن الفرد إلى المجتمع .

ولكى يحقق ابن باديس الوعى وينشره قام بتحويل المساجد إلى مؤسسات تربوية تعلم أفراد المجتمع اللغة وحقائق الدين ومبادئ العلوم ، وتقدم المشورة الواعية والحل الأمثل لقضايا الأسرة ومشاكل المجتمع . ومارس ابن باديس ذلك عمليا فى العديد من المساجد مثل المسجد الكبير بقسنطينة ومسجد سيدى قموش،

---

(١) راجع ابن باديس : حياته وآثاره جـ٤ ص ٣١٩ . وما أثير فى ندوة الأصالة من آراء ومناقشات حول كفاح ابن باديس بمجلة الأصالة س١ ، ع٢ مايو ١٩٧١.ص ٧٤ - ٧٨ .

ومسجد سيدى عبد المؤمن ، وسيدى بومعزة والجامع الأخضر ، وجامع سيدى فتح الله وغيرها .

ولم تكن المساجد وحدها هى المؤسسات التربوية المنوطة بهذا الدور بل كانت المدارس والمعاهد والصحف أيضا تؤدى نفس الدور فى يقظة الوعى وتصحيح المفاهيم والقيم والعادات هذا بالإضافة إلى دور ابن باديس البارز ممثلا فى تفسيراته للآيات والأحاديث وما تشير إليه من دعوة إلى العلم والنهضة والتعاون والقوة وبناء المجتمع السليم . كما حرص على تدريس أمهات الكتب فى اللغة والدين والفقه والتعريف بأصحابها وفضلهم مثل : كتاب الشفاء للقاضى عياض ، والمقدمة والعبر لإبن خلدون ، إلى جانب بعض الفوائد والأحكام فيما قدمه رجال الفقه أمثال مالك والشافعى وابن عبد البر وأبى بكر ابن العربى وغيرهم من رجال السلف الذين اعترف ابن باديس بفضلهم واستلهم آرائهم وقدم للناس علومهم .

- كما حرص على انتشار الأساليب التربوية القائمة على تدعيم القيم والأخلاق فكان يقول : على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية الداعية إلى احترام الإنسانية والمساواة والتراحم والتعاطف ليتزودوا ولتيزودن بها وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة .(١)

- ولتحقيق مبدأ العلم والتعليم وفق منهج التدرج من الخاص إلى العام ومن الجزء إلى الكل ، قرر ابن باديس : أن المجتمع لا يكون إلا بأفراده الذين يمتازون بالحرص والفناء من أجل مجتمعهم ، وأن الإهتمام بالنشىء يبدأ من الفرد ثم الأسرة ثم العائلة ثم القبيلة ثم المجتمع الخاص أو الوطن ثم يمتد إلى الإنسانية أو البشرية

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره جـ١ ص ١٠٥

بوصفها الوطن الكبير المتكون من ذلك كله ، وأن التربية الحقيقية تبدأ بإصلاح نفس الفرد ثم بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه ثم من بعدهم – فإذا تحقق ذلك – فلا نلبث أن نرى الخير قد انتشر فى الجميع لأن من الأسر تتركب الأمة ، وعندما يعنى كل واحد بأسرته ترتقى الأمة كلها بإرتقاء أسرها ، فإرتقاء أى كل بإرتقاء أجزائه ، ويكون المعتنى بأسرته فى الوقت نفسه معتنياً بأمته ، وعندما يقصد بخدمته أسرته خدمة أمته له ثوابه .(١)

– ولتحقيق مبدأ تكامل الشخصية وفق منهج الإهتمام المشترك . قرر ابن باديس : أن الكمال الإنسانى متوقف على التربية السليمة القائمة على العلم أولاً ثم قوة الإرادة والفكر والعمل وهى الأركان الثلاثة التى تبنى حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها عليها ، ولذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها ، وهذا لا يكون إلا بالتربية ، فيثقف عقله بالعلم ويقوّم أخلاقه بالسلوك النبوى ويقوى بدنه بتنظيم الغذاء وتوقى الأذى والتريض على العمل .(٢)

ومن الإهتمام بالنفس وقواها العاملة يتولد الإهتمام المشترك ويتحقق الوعى، لأن تحقق الوعى يعنى تحقق الشعور بالانتماء والاهتمام بالنفس ثم تحقق الإنتماء الإجتماعى والإهتمام المشترك . .

ويصف ابن باديس كيفية تحقق الوعى كشعور بالإنتماء والإهتمام فيقول : "لاحياة للشخص إلا بحياة قومه ولا نجاة له إلا بنجاتهم ، وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم . ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه وأن لا يكون إهتمامه بهم دون إهتمامه بها .. وإنما ينهض المسلمون

---

(١) د. مصطفى حلمى : الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة ص ٢٣٠

(٢) راجع تفسير ابن باديس لسورة الفرقان آية ١٢ ، وفى آثار ابن باديس جـ١ ص١٠٥ .

بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة ، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآذر ، وهذه الجماعة المنظمة القوية هى ناتج الفرد موضوع الإهتمام المشترك ذلك الفرد الذى يكمل إذا كملت جوانبه الثلاثة العقلى والخلقى والعملى .(١)

٣- ضرورة الإهتمام بالمرأة وتعليمها : لأن الإصلاح الإجتماعى يتوقف على إصلاح الفرد سواء كان رجلاً أم إمرأة . والمرأة لها دورها فى الإصلاح لأنها جزء من هذا الفرد . ويعلل إبن باديس ذلك بقوله :

" إن الكمال الإنسانى متوقف على قوة العلم وقوه الإرادة وقوة العمل فهى أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد اللذين ينهض بها بجلائل الأعمال ويبلغ بها أسمى غايات الشرف والكمال ، والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلى أعطيت من القوى الثلاث القدر الذى يحتاج إليها منه وهو دون ما يحتاج إليه الرجل الذى خلق للقيام بقسم الحياة الخارجى ، فكانت بخلقتها أضعف منه فى العلم والإرادة والعمل فكانت لذلك دونه فى الكمال .. ومع ذلك فإن تقسيم الحياة إلى قسميها ضرورى لبقاء النسل وحفظه ، وتقسيم وظيفة الحياة بين الرجل والمرأة وإعطاء كل واحد منهما القدر الذى يحتاج إليه فى وظيفته من بديع صنع الحكيم الخبير ، فلو لم يعطى الرجل ما أعطى من كمال القوى لما استطاع القيام بالأعمال الكبيرة فى قسمه ، ولو أعطيت المرأة مثل ما أعطى الرجل لما صبرت على البقاء فى قسمها فاختل النظام وحصل الفساد.(٢)

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره جـ١ ص ١٠٦-١١١

(٢) راجع الفصل الذى خصصه ابن باديس فى كتاب : من هدى النبوة فى باب عناية الإسلام بالمرأة وأهمية المرأة فى المجتمع ، وتفسيره للأحاديث التى تعالج وظيفة المرأة الإجتماعية وحقها فى التعليم ص ١٤٠-١٦٣

ولأن الإصلاح الإجتماعى يتطلب وعى إجتماعى وعناية بالفرد بيّن ابن باديس أهمية معرفة المرأة بوظيفتها الحقيقية فى الحياة لتساهم عمليا فى عملية البناء الإجتماعى والتغلب على العقبات التى تعوق الإصلاح كالعادات الفاسدة ومساوئ الأخلاق والجهل والأمية ، وهى ظواهر يرجعها ابن باديس فى الغالب إلى تأخر المرأة العربية فكريا وحضاريا وعدم العناية بها أو تعليمها ، كما يؤكد على أن وظيفة المرأة فى البناء الإجتماعى وظيفة محددة ولها غايتها لأنه لا بناء لأمة من الأمم إلا بنظام أسرها وحفظ نسلها وقد خصص الله المرأة للقيام بهذين الأمرين العظيمين وزودها من الرحمة والشفقة ما يعينها عليها ، وإنما تقوم بهما إذا جمعت بين العفة فى نفسها والإقتصاد فى نفقتها والتفرغ للقيام بالتربية لإبنائها فإن الأخلاق تتوارث والبنات متأثرات بالأمهات فى الغالب.(١)

٤- ضرورة الإلتزام بمعايير النقد البنّاء بوصفها الوسيلة الفعّالة لتغيير الأنماط الثقافية وتصحيح المفاهيم وتنمية روح المشاركة والتعاون ومواجهة المفاسد الأخلاقية والإجتماعية ، وتحقيق الترابط الإجتماعى .

ولكى يحقق النقد هذه المهام أكد ابن باديس أن الإطار العام للنقد البناء هو الإطار الأخلاقى فيه يتحقق الإنتصار للحق والعدل والخير ومقاومة الباطل والظلم والشر فى جميع المجالات والنواحى .

- **وأن مهمة النقد الأولى هى** : كشف النقائص والعيوب فى المجتمع العربى عموما والجزائرى على وجه الخصوص وخاصة تلك التى تعوق التطور الإجتماعى وفى مقدمتها : التخلف الفكرى واللغوى ، ثم الطرقية بمفاسدها وأفكارها ثم الإستعمار بتوجهاته وأساليبه ، وأن هذه المعوقات أو النقائص الثلاث

---

(١) ابن باديس : من هدى النبوة ص ١٣٣-١٤٥ ، ابن باديس : حياته وآثاره جـ١ ص ١١٨ وجـ٣ ص ٤٦٧-٤٦٩

وليدة أسباب مشتركة ومترابطة لأن التخلف وليد الطرقية والإستعمار ، والطرقية وليدة الجهل والتعصب ، والإستعمار سبب لكل من التخلف والطرقية ، كما أن التخلف والطرقية عاملان يساعدان على وجود الإستعمار واستمراره .

– **والمهمة الثانية للنقد** : عند ابن باديس هي مهمة أخلاقية لأن هدف النقد الأول هو تقويم الأخلاق ، الذى يتحقق عندما تكون مهمته النظر من الناس إلى أعمالهم لا إلى أقدارهم ، ولا يكون للأشخاص فيما يختص بأحوالهم الشخصية وإنما يتوجه إلى سلوكهم الذى يمس شئون الأمة ، ويكون بنقد الأشخاص الذين يتولون مناصب قيادية كالحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء وكل من يتولى شأنا عاماً ، لأن هدف النقد العام هو مناهضة المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين ونصرة الضعيف والمظلوم .(١)

– **والمهمة الثالثة للنقد** : عند ابن باديس هي مهمة إصلاحية تتمثل فى السعى لهدم كل فاسد وتنمية كل صالح ، وتحقيق ذلك بالوعى الذى ينمى الروح القومية والقوى الإبتكارية ، وبالنقد البناء الذى يكشف حقيقة الأوضاع أمام الشعب والعلم بأسباب الإنحطاط دينيا وسياسياً وأخلاقيا.

ولهذا كان تأكيد ابن باديس على أن البناء والوعى لا يتم إلا بنبذ التقليد والتعصب للمذاهب ، ونبذ الإستبداد ومحو الجهل والقضاء على كل عوامل الخلل والضعف والتخلف وفق مبدأ العلية على أساس أنه إذا زالت العلة بالنقد زال المعلول ، وأن علة الفتور والضعف هى الخلل الدينى الذى لا يعالج إلا بتوجيه النقد البناء وفحص أسباب الداء ووصف الدواء .(٢)

---

(١) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ٨٢/٨٣

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره . جـ١ ص ٧١-٨٢

٥- ضرورة العناية المستمرة بالإنسان ، وتحقيق ذلك عمليا يتطلب حمايته من الآفات الإجتماعية وآثارها الضارة ، ولقد اعتبر ابن باديس أن الطرقية الخارجة عن الدين فى مقدمة الآفات الإجتماعية المعوقة للبناء والإصلاح ولأنها تقوم بعمل ما يحرمه الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين ولهذا فهى قوة مؤثرة بالسلب على النمو الحضارى للمجتمع ، مما جعل ابن باديس يربط بين المعركة ضد التخلف وبين الطرقية فى جانبها السلبى ، فتصدى لهم وعمل على بيان خطر هذا النوع من التصوف من الوجهتين الدينية والإجتماعية وخاصة أن القوى الخارجية الإستعمارية كان لها دورها فى تحول بعض الطرق عن حقيقة التصوف الإسلامى فابتعدوا عن الجهاد والزهد الحقيقى وأصبح التصوف عندهم مجرد طقوس وشعوذات .

ورغم هذا لم يهاجم ابن باديس التصوف ككل ولم يهاجم جميع الطرق بل أنه التزم الموضوعية وميّز بين نوعين من الطرقية أحدها إيجابى يعمل من أجل انتشار الدين ويشارك فى الجهاد والعمل الجماعى ، والآخر سلبى قد انحرف عن أصل الدين ويتعاون صراحة مع الإستعمار ويستسلم للتواكل.(١)

وكان موقف ابن باديس العملى فى مواجهة هذه الآفة قد بدأ منذ عام ١٩٢٥ حين بدأ بمعارضة آرائهم فى الصحف والتدليل على تهافتها وخروجها عن أصل الدين ، ثم مقاومة إتجاههم السلبى بتدعيم التربية الروحية والإجتماعية والتحرر من شوائب التقليد والدعوة للتعليم المستنير والدين الصحيح ، ومن ناحية أخرى حاول تقويم الإتجاهات السلبية لبعض شيوخ الطرق الصوفية وخاصة هؤلاء الذين استخدمهم الإستعمار ضد حركات التحرر والإصلاح والذين إشترطوا على جمعية العلماء وعلى رأسها ابن باديس أن يهجروا السياسة وأن يحرموا استخدام

---

(١) د. محمود قاسم : ابن باديس الزعيم الروحى ص ١٩-٤١

النظر العقلى والاستدلال وأن يوافقوهم على أفعالهم وقد اقترح عليهم ابن باديس أن يعرضوا هذا الرأى على حكم لا يميل مع الهوى وهو الكتاب والسنة ، وعندما أيقن من غلوهم وعنادهم رفض الصلح معهم ووصف ذلك بقوله :

" إننا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان ولايجدى معهم حلم معاوية ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب ولا تسامح صلاح الدين وليس لنزاعهم معنا غاية غير كم أفواهنا وكسر أقلامنا ثم إقلاق راحتنا إذ أعجزتهم المقادير عن إذهاق أرواحنا (مشيراً إلى محاولة أغتياله) وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين : إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأننا وطنيون ضد الإستعمار ، وأننا نعمل للجامعة الإسلامية ، وثانيهما الإختلاق علينا مع الأمة بأنا ندّعى الإجتهاد وأنا نستخف بأمتنا فى الدين وأنا ننكر الولاية والكرامة لذلك فإنه لا أمل فى مثل هذا الصلح وذلك اللقاء.(١)

هذا بالإضافة إلى موقفهم السلبى الضار لأنهم أصبحو أداة لتخدير الشعب وصوروّا للناس أن الإحتلال الفرنسى وما يفعلونه أنه إرادة الله سبحانه التى لا ترد، كما تزعموا دعوة الإندماج مع فرنسا قائلين : " إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك وهو على كل شيء قدير وإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل وكان ذلك عليه أمراً يسيراً ، ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة وهى مظهر قدرته الإلهية ، لنحمد الله ولنخضع لإرا دته .(٢)

ومن أشهر الطرق الصوفية التى انتشرت بالمغرب العربى واستمر تأثيرها عبر الفرق والطوائف والطرق الفرعية . مثل :

---

(١) د. محمود قاسم : ابن باديس الزعيم الروحى ص ٤١ . وفى : أنور الجندى : الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال إفريقيا ص ٢٠-٥٣

(٢) ملفّ الطليعة مقال دكتور محمد عماره . ع ١١ نوفمبر ١٩٧٢ . ص ٨٩

(١) الطريقة التيجانية التى أسسها أحمد بن المختار التيجانى ت ١٢٣٠هـ

(٢) الطريقة الختمية التى أسسها محمد عثمان المكى الحسين بن محمد بن أبى بكر ت ١٢٦٨ هـ

(٣) الطريقة السنوسية التى أسسها محمد بن على السنوسى ت ١٢٧٦ هـ

(٤) الطريقة الطيبية التى أسسها السلطان المغربى موسى الطيب عام ١٢٨٦ هـ

(٥) الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى ، وتفرع عنها كثير من الفرق والطوائف كالدرقاوية التى أسسها العربى الدرقاوى عام ١٨٢٣ وكان يمثلها أيام ابن باديس الشيخ غلام الله الذى كان يدعو إلى الإتفاق الدينى بين الإسلام وفرنسا.

(٦) الطريقة القادرية التى أسسها الشيخ مختار الكبير بالمغرب وهى ترجع إلى مؤسسها الأول وهو عبد القادر الجيلانى .

(٧) الطريقة العليوية أتباع الشيخ أحمد بن عليوه والتى عارضت آراء ابن باديس الإصلاحية .

(٨) الطريقة الخلوتية أو الرحمانية والتى أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن عام ١١٨٤ وهى التى كان ينتمى إليها ابن باديس فى شبابه .